10 me Année No. 444

Lundi - 5 - 1 - 1942

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٤٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٥ يناير سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الرسالة

فى عامها العاشر

باسم الله تخطو الرسالة إلى عامها العاشر ؛ وبغير اسم الله نور السموات والأرض لا يهتدى فى هذا الظلام الحالك سارٍ ولا سائر . والظلام فى هذا الكوكب طبيعة أصيلة ؛ فأناره الله بالشمس والقمر والدين ؛ وأنرناه نحن بالزيت والكهرباء والعلم ، حتى أوشك أن ينجاب الحلك الناشئ عن آفاته وأخلاقه ؛ ولكن سلائل الطين لا تستضيء بصائرهم وسرائرهم بغير الدين ؛ فإذا أطفأوه فى قلوبهم تنفسوا الظلام فإذا الدنيا ضلال وجهل ! وإذا العالم دمار وهُلْك ! وتلك هى الحال التى يكابدها الناس اليوم : ظلام فى بلاد الأرض ، وظلام فى نفوس الناس ، وظلام فى وجوه المستقبل ! فمن يخرج يده لا يكدْ يراها ، ومن يتعلق بسبب من أمله انقطع به ! ومن ينظر فى صفحة الغد عمِّيت عليه ! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !

* * *

الظلام ! الظلام ! الظلام ! ذلك هتاف الأمان ودعاء السلامة فى كل أمة من أمم الشرق والغرب اليوم ! فليت شعرى هل

الفهـــــــرس

تالله الشر وتحكم الشيطان وصدقت المانوية[1] !

غشينا ظلام الغرب ولفَّنا ليله الأليَل ؛ فكأنما انطفأت في مشرقنا عين الشمس ! وما كان الغرب منذ دحا الله الأرض إلا مبهمث ظلمة ؛ وما كان الشرق منذ أوقد الله الشمس إلا مطلع نور . فإذا دجت الآفاق واستسرّت المعالم كان معنى ذلك أن الشرق قد انكفأ فلم يرسل شمسه ولم يبلغ رسالته !

والحق أن منازل الوحي من الطور والجليل وحراء قد أصبحت ترسل أمواج النور الإلٰهية لغير قابل . كان لها من نفوس الأنبياء أجهزة من صنع الله تقبلها وتنشرها وتهدي بها وتدعو إليها ؛ فلما خُتمت النبوة وانقطع الوحي ورث الخلفاء والعلماء رسالة الله فكانوا كورّاث الملك أو المال ، منهم القاعد المضيع ، ومنهم الجاهد الكاسب . ولو شاء ربك أن يدرك النصرَ أولياؤه ، ويطبِّق الأرض دينُه ، لجعل الناس أمة واحدة ؛ ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم !

لا تزال منازل الوحي ترسل الأمواج السماوية بالهدى ودين الحق ؛ ولكن الله الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء حرم الناس نعمة القبول فاستأسدت فيهم الغرائز ، وأسرفت عليهم المطامع ، وتفرقت بهم المذاهب ، وذاقوا من فساد النظام وطغيان الحكام ما لم يذقه الحيوان الأدنى من القتل والجوع والجور والبؤس والفوضى

وكان الظن بالأزهر الذي قام بالدين ، وعاش بالدين، أن يكون لأمواج الوحي الخالد محطة استقبال وإذاعة ؛ ولكنه انقطع عن ركب الحياة يخضع لعوادي الدهر القاهر ، خضوع القلعة المحصورة للمغير القادر !

على أن هذه الحرب العالمية هي كما قلنا القيامة الصغرى ؛ ومن الحتم أن سيكون بعد القيامة الخَلق الجديد والحياة الفضلى . والواقع في الظن أن الأزهر يمهد لهذا الانبعاث ، ويهيئ لهذه الحياة . وما هذه الروح التي دبت في (جماعة كبار العلماء) آخر العام المنصرم إلا نفحاتُ الربيع الأولى يرسلها النيروز لتُجري الماء في الأعواد ، وتوقظ الحياة في البراعم

* * *

لعلك تقول لنفسك : ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر في معرض الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر في رأي أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب ؟

وقولي فيما تقول أن الشرق لا ينهض إلا بالدين ، وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر . ولست أقصد بالدين هذا الدينَ الذي يعتقده المسلم المعاصر ، ولا بالأزهر هذا الأزهرَ الذي تراه في نظامه الحاضر ؛ إنما الدين الذي أعنيه هو دين القرن الأول ، والأزهر الذي أبغيه هو أزهر القرن الرابع عشر . أريد الدين النقي القوي الذي فتح الممالك ، ومدّن الأمم ، وكرّم الإنسان ، واحترم العقل ، وفرض المعرفة ؛ أما هذا الدين الذي يقول بشفاعة الأولياء ، وتمجيد القبور ، وتقديس القديم ، وإيثار التواكل ، ومخادعة الله بالحيل ، ومهاواة القادة بالنفاق ، فليس دين الله ؛ إنما هو دين هؤلاء الأوزاع الأتباع الذين ضلّوا وذلّوا فرّقتهم الأحداث ، وأكلتهم المطامع ، وأصبحوا نهباً تتقاتل عليه الدول ويعتدل بتقسيمه التوازن

وأريد الأزهر الجديد الذي يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين ، يقوى بقوة الله ، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ؛ ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر ، وتقتضيه الحاجة ؛ أما هذا الأزهر الذي يَمْضُغ الكلام ، ويجترّ الماضي ، ويقتات الفُتات ، ويعطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، فهو مسجد من المساجد الأثرية لا أقل ولا أكثر

* * *

أما بعد ، فقد عوّدتك يا قارئي العزيز أن أتحدث إليك في مطلع كل عام عن بلاء الرسالة في الجهاد وعملها في المستقبل ؛ وإنك لتعلم أن هذا الظلام الشامل الكثيف الذي ضرب على أبواب الغد حجباً فوق حجب ، يجعل مثل هذا الحديث أقرب إلى لغو الكلام وعبث الأماني . فاسأل الله أن يتولانا في هذه الأزمة العامة برحمته وفضله !

احمد حسن الزيات

(١) المانوية مذهب ماني ، وهو رجل ولد في فارس حوالي سنة ٢٧٤ م ، وكان يقول بأن العالم تتولاه قوتان متضادتان : قوة من طبيعتها الخير وهي الله أو الروح أو النور ، وقوة من طبيعتها الشر ، وهي الشيطان أو المادة أو الظلام ، وقال المتنبي :

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب

أحلام العام الجديد

للدكتور زكى مبارك

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية « استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف » ، فتوكل على الله وقرر أن « الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء ؛ أما المشتركون الجُدُد فيؤدون الاشتراك كاملاً ، مقسَّطاً أو غير مقسَّط » . وبهذا ظهر « امتياز » الصديق القديم على الصديق الجديد !

والتفتُّ فرأيت العام الجديد يخيفني من ناحية غير تلك الناحية ، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع موادّ الطباعة ، بعد أن أرجأت النظر فى طبع مؤلفاتى الجديدة إلى أن تنتهى الحرب ؛ وإنما أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لا عشرة أضعاف

وما ظنُّكم بزمان لا يبرع شعراؤه فى غير الحديث عن « الرغيف » ، كالذى ترون من يوم إلى يوم فى بعض الجرائد والمجلات ؟

ما ظنُّكم بزمان يعدّ فيه الحديث عن أحلام القلوب ضرباً من الفُضول ؟

إن هذه المحنة العاتية هى الفرصة لاختبار ما عند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية ، فبها نعرف ما عندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان

أيكون الكلام عن « الرغيف » تودداً إلى أهل البطون ، وهم ألوف أو ملايين ؟

إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهى تسمو على الحاجيات اليومية ؟

أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يهتبلها من لا يصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء ؟

إن كان ذلك فأين تصوّن الأديب عن الكلام المبذول ؟

سمعت — بل علمت — أن مدرساً فى « قنا » أرسل إلى مجلة تلك برقية يشكو فيها انعدام الرغيف ، فماذا وقع من الخطر حتى يجوز مثل هذا الصراخ ؟ وماذا نصنع لو أصبحت بلادنا وهى ميدان حرب ، وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون ؟

وإذا استجاز « المدرس » أن ينظم القصائد الطوال فى الشوق إلى الرغيف وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس ، فماذا يصنع « الفلاح » أو « الصانع » وهما شخصيتان تعتمدان فى القوت على الرغيف ؟

لعل الأيام أرادت أن تعلمنى ما كنت أجهل ، فقد طال منى التجنى على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من ربقة الرغيف) فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة فى العصور الخوالى ؟

ولعل الأيام أرادت أن تفهمنى بأنى صرت من الحكماء من حيث لا أعرف ، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال ، واكتفيت بما تيسر من الخضروات ، بغض النظر عن اللحم الذى [illegible] باسم النقد الأدبى ، وهو لحم غاب اسمه عن « دولة الحاكم العسكرى » فلم يفرض على من ينتاشه أى عقاب !!!

ما تهمنى أزمة الرغيف ، وإنما تهمنى أزمة القلب

ولو كان فى وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف ، لأن القلب هو الأساس فى فهم أخطار الوجود

الظبية تجتزئ بالعشب فتستغنى عن الماء ، ومن أجل هذا سُمِّيت جازية ، و « جازية » اسم من أسماء الملاح فى هذه البلاد وإن لم يعرف الجمهور ما فيه من معنًى ملفوف

فإذا فقدت الظبية العشب ، فكيف تعيش وبه غنيتْ عن الماء ؟

لن أنسى أبداً سخرية « فاجيه » من « أفلاطون » ، وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسى ، ومن سيرته تعلمت أشياء هى الهادى والدليل فى حياتى الأدبية ، فأنا أسجل كل ما يعتلج فى صدرى قبل أن يضيع ، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء ، بلا تقيد بالمكان والزمان !

وفى هذه المرة أكون أعظم من أستاذى فاجيه ، فقد سخر من تسامى الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون . أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس

نحن ، رجال القلم ، أعرف خلق الله بما يشتجر فى الصدور من آلام وآمال

كانت الحكومة إلى رجال يعيشون فى حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل : فلا يعرفون ما يعانى الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب ...

ولم نكن كأولئك ، فنحن قوم نعيش الشعب وفى صحبة الشعب ، ولنا فيه أعمام وأخوال ، ولن تتجنى عليه بأى حال

ونحن مع هذا معرّضون لدسائس سود ، ومن الواجب أن نبدّد تلك الدسائس ، بلا تسويف ، تمهيداً للوزارة التى سنؤلفها فى العام الجديد .

قيل إن الزيات متأنق فى الأسلوب ، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء ؛ وأقول إن هذه النزعة تنفع فى المزاوجة بين الطبقات والأحزاب ، حين يمسى الزيات وهو رئيس الوزراء

وقيل إن العقاد مولع بوصل ما بين الشرق والغرب فى الآفاق الفكرية ، وأقول إنه أصلح الأدباء لتولى وزارة الخارجية .

وقيل إن أحمد أمين لا يجيد الكلام فى غير البحث المطروق ، وأقول إنه أصلح الناس لوزارة المواصلات ، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب .

وقيل إن المازنى أول أديب حجّ بيت الله فى غير موسم الحج ، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر فى الحجاز ، وإن قال فى سلاذ « زكى باشا » ما قال .

وقيل إن توفيق الحكيم يقدس « السيدة زينب » فهو إذن وزير الأوقاف .

وقيل إن طه حسين لم يُجد فى « هامش السيرة » غير الحديث عن « الراهب » فهو إذن وزيرنا فى بلد النجاشى .

وقيل إن محمود تيمور لا يحسن القول إلا فى وصف الطبقات الشعبية ، فهو إذن وزير الشؤون الاجتماعية .

ولا موجب الحديث عن الأدباء الغَدَرَة من أمثال : عبد القوى أحمد ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرازق ؛ فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ !

بقى مكانى فى الوزارة المنشودة ، فما عسى أن يكون ؟

هل أختار وزارة المعارف ؟

وكيف وهى وزارة متعبة ، وما تولاها رجل إلا عرف خطر المشى على الشوك ؟

صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخلَف ما بنى السلف ، وأنا أكره التقلبات الكثيرة ، وأبغض الضجيج المفتعَل ، والصياح المصنوع .

يضاف إلى ذلك أنى نشرت مقالات تفوق العدّ والإحصاء فى شؤون التربية والتعليم ، ومن الجائز أن يطالبنى الجمهور بتحقيق ما اقترحت فى تلك المقالات ، وهنالك الخطر كل الخطر ، إلا أن أروض نفسى منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات !

هل أختار وزارة الداخلية ؟

هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب ، ويثور على الاحتكار والمحتكرين .

إن توليت وزارة الداخلية ـ وهذا أمر قريب ـ فسأفرض على رجال الحكومة فى مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس ، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات ، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشاً يمزق الشراذم الباغية على الأمن والنظام ، وهل يهدّد الأمن والنظام بمثل الإصرار البغيض على احتكار الأقوات ؟

لن أنتظر حتى ينتفع الناس بوعظ الواعظين ، وإرشاد المرشدين ، فقد ظهر أن فى الدنيا قلوباً لا يقوّمها وعظٌ ولا إرشاد. لن أنتظر غير حكم العدل ، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة فى زوايا البيوت ، بيوت الأغنياء والفقراء ، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون فى الفقر تزوير وافتعال « ولم يكن المصريون كذلك فى الأيام الخالية ، فقد كانوا يسترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين »

إن توليت وزارة الداخلية ـ ويجب أن أتولاها ـ فسأحرم المعد نعمة الثرثرة فوق المصاطب ، وسأحولهم إلى جنود نافعين ، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شىء ، ولكنهم يكتمون ما يعلمون ، فإن طووا عنى ما يجب أن أعرف فسأقضى فيهم بالعدل ، وهم يفهمون جيداً خطر العدل .

أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات فى مثل هذه البلاد ؟

وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعى إلى الجهاد ؟

اللعب فى أمثال هذه الأيام لا يليق ، ومن اللعب القبيح أن يكنز ناس ما يملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع .

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه حمقى يوم أتولى وزارة

الداخلية ، فسيقول السفهاء من الناس إنى خليفة الحجاج ، وسيتخذون من شراستى دليلاً على أن المواهب الأدبية تنطوى على جحيم من الطغيان المكبوت .

وما خوفى من القال والقيل وأنا فى غنًى عن رضا الناس ، ولن أتقدم يوماً لخوض معركة انتخابية ؟

إن رجال الأقلام هم أصلح الرجال لسياسة الدولة فى السنين العجاف . وهل يشقى أحدٌ فى سبيل الأمة كما نشقى ؟ وهل يعرف أحدٌ من متاعب الأمة بعض ما نعرف ؟

الوزراء فى الأمم الدستورية لا يقدرون على الحزم إلا فى أندر الأحيان، لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين ، وفى الناخبين خلائق لا تمطى أصواتها إلا لغاية معطوبة ، هى السكوت عن آثامها الثقال

ولن أكون وزيراً برلمانيًّا يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يُقدِم على إعزاز شريعة العدل

سأكون بإذن الله وزيراً يُختار لغرض واضح صريح : هو القضاء على البغى والفساد ، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات

وقد فكرت فى مصير البرلمان الحاضر ، وهو برلمان طال حوله الخلاف ، ثم صح الرأى على السكوت عن هذه المشكلة الدستورية إلى حين ، فما يتسع وقتى للنظر فى شئون تضر أكثر مما تنفع . وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد ؟ — « إنما أسأل أمام ضميرى لا أمام البرلمان »

سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف ، فلن تكون هناك أغلبية وأقلية ، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء

لن يقول النحاس باشا : « أنا أول من أنذر بأزمة التموين » فسأسوقه سوقاً إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس

ولن يقول الدكتور ماهر باشا : « أنا أول من تأهب للحرب » ؛ فسأجره جراً إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء !

سأغيّر من أخلاق الناس ، إن دُعيت إلى ولاية الحكم فى هذه الأيام ، وليس ذلك بالأمر البعيد ، فقد جُرّبتْ جميع القُوى السياسية ، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية ، وهى أقوى من الزمان

أما بعد فهذا حُلمٌ من أحلام العام الجديد ، ولكل عام أحلام هو لفتة روحية ستؤتى ثمارها بعد حين ، فمن الشر الوبيل أن يحال بين رجال القلم وما يشتهون من إقرار العدل ، وما كانوا فى الحاضر والماضى إلا موازين

دعوْنا كم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا ؟ ونبهنا كم ألف مرة عن تناسى السلطة الأدبية فلم تنتبهوا . فهل جازينا كم صداً بصد ، وإغضاء بإغضاء ؟

لا ، والله ، وإنما مضينا على السجية الكريمة ، فأوقدنا فى صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخى ، فما كان فى الأمة من خير فهو من صُنع أقلامنا ، وما كان فى الأمة من شر فهو من جناية الراغبين فى السيطرة والاستعلاء

لن تصلُح الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدى رجال القلم البليغ ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان الوضيع

أتريدون الدليل ؟

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب ، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر فى سياسة البلاد

وأنتم تضفون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب ، وقد تُسندون بعض المناصب إلى من لا تُزكّيه غير رضا كم عن أسلوبه فى حفلات الاستقبال

الأدباء هم أقدر الرجال فى مصر على عصيان الأهواء

ألا ترون كيف نحارب منافعنا فى سبيل النزاهة الأدبية ؟

نحن نصاول الأحزاب والهيئات فى كل يوم لنرفع قدر الفكر والرأى ، ونرحب بجميع المتاعب فى سبيل تلك الغاية العالية ، فأين من يصنع بعض الذى نصنع ؟ وأين الذى يعانى فى سبيل المبادئ السامية بعض ما نعانى ؟

لو سخرنا أقلامنا فى سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق فى وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت ، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون

إلى أقلامنا يرجع الرأى فى سياسة هذه البلاد ، وإن بعُدنا صورياً عن المناصب الوزارية والبرلمانية ... لكل وطن روح ، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ

زكى مبارك

ظاهرات نفسية

٢ ـ في مسرحيات محمود تيمور

للأستاذ زكي طليمات
مفتش شئون التمثيل

سبق أن قررت في مقالي السابق [1] عن مسرحيات تيمور أن القيمة الأدبية الحقة للعمل الأدبي، مسرحية كان أو قصة، رهينة بما يسجله من الحقائق الإنسانية الخالدة التي تسمو على مشكلات الاجتماع، ومسائل الإصلاح الموقوت، وأزياء الأساليب البيانية، وتتجاوزها إلى ما هو أعرق في الإصالة وأجدر بالمعالجة، ألا وهو النفس البشرية بكامل كيانها، فيكون همُّ الكاتب قبل كل شيء، تسجيل سماتها والكشف عن مظاهرها ومضمراتها. ومن أجل هذا جعلت نقدي للمسرحية الأولى من مسرحيات تيمور، ألا وهي (الصعلوك)، معنى بهذه الناحية وتجاوزت قصداً عما سواها؛ وسيكون هذا دأبي في نقد المسرحيتين الأخريين، وهما (أبو شوشة) و (الموكب) وعلى أساس أن كياننا النفسي الكامل يتألف من العقل الظاهر (الوعي) ومن العقل الباطن (اللاوعي)، وإننا في تصرفاتنا خاضعون إلى التيارات الخفية التي تنطلق من معقل الوعي الباطن فتدفعنا إلى إتيان بادرات، لا يستطيع عقلنا الظاهر تفسيرها [2]

النقد تفسير وتبيين وتسجيل

إن مهمة الناقد وقد أخذ بما أسلفناه شاقة عسيرة، ولكنها مجدية للقارئ قبل كل شيء، إذ أنها تقدم له في بيان واضح وسرد مستفيض غير مقيد بأوضاع وقيم فنية مرسومة، تقدم إليه سمات هذه الشخصيات التي نلحظها في تعقيدها النفسي مضطربة مقنعة، بعد أن يكون الناقد قد استخرجها من بين السطور، وقيد أوابدها، وتصيد شواردها، وحلل نزعاتها، وأسقط أقنعتها

ورب معترض يقول: وما هذا اللون من الأدب أو المسرحية الذي يحتاج إلى تفسير وتعليق وتذييل يجلو الغموض ويبدد الأبهام؟ ولم كل هذا التعليق من جانب الناقد!؟

وجوابنا: أن لا غموض ولا إبهام تلحظه العين في عمل أدبي حق، لو أن كل قارئ كان سامياً في ثقافته إلى المستوى الذهني الذي أصدر عنه الكاتب أو الشاعر عمله الأدبي الرفيع، وصدق القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وإن النقد كما أنه تنبيه منزه عن السقوط إلى ما يتضمنه العمل الأدبي من مفاتن ومقابح، فهو تفسير وإيضاح لما يسجله المؤلف مجملاً أو مركزاً، وقد تقيد بقيود الوضع الشكلي الذي تفرضه صياغة القصيد أو القصة أو المسرحية، وأخذ بأسباب شرائط فنية قد توجب الإغراب قصداً، وقد تحتم التلويح بدلاً من التصريح في مواقف، والعكس بالعكس في مواقف أخرى، وقد تقضي بالإيجاز الذي يضني القارئ في ناحية، لتنهكه مرة أخرى في تنقل وثبي جرئ، تدفعه من فكرة إلى فكرة، ومن خيال إلى خيال، من غير تمهيد يستطيع كل قارئ معه أن يجد الرابطة بين كل هذا

وهناك شيء آخر جدير بالاعتبار يتصل بالمؤلف نفسه مباشرة، وذلك أن النقد إذا صح أنه إيضاح وتبيين فوق تبيين، ييسر لكل قارئ استبطان دخائل العمل الأدبي الذي يقرؤه، ويبصره بمواطن الفتنة والسمو والقبح والإسفاف فيه، فهو أيضاً تسجيل وتحليل لطرائق المؤلف واتجاهاته في الأسلوب والصياغة والفكر؛ وهو أيضاً تقدير لمبلغ توفيقه في كل هذا، لأن المؤلف الموهوب قد يصدر كثيراً فيما يكتب عن وحي الساعة وقد تلبسته حال من اللاوعي، فهو لا يخضع كل سانحاته وطوارقه الذهنية إلى مقاييس الفن ومعايير البيان. إنه يرتجل أحياناً وهو يدري ولا يدري بعد أن تهيأت نفسه للخلق والابداع، وفي تسجيل هذا من جانب الناقد تبصير جديد للقارئ وإقرار صحيح لمنازل الكتاب من حيث القيم الأدبية الفنية

وفيما نحن بصدده في مسرحيات تيمور ـ وقد نحا في التأليف والتحليل النفسي نحواً يقضي بتسجيل النتائج والأعمال التي يأتيها أبطال مسرحياته من غير أن يعني بتبيين البواعث والدوافع، وذلك باعتبار أنها أعمال تبدر من العقل الباطن ولا يستطيع العقل الظاهر تعليلها وتفسيرها ـ لا مناص من أن تكون مهمتنا الأولى إيضاح هذه البواعث التي أدت إلى النتائج، ولا يخفى أن

---

(١) عدد «الرسالة» رقم ٤٤٠ المؤرخ في ٨ ديسمبر

(٢) عدد «الرسالة» رقم ٤٣٩ المؤرخ في أول ديسمبر

أعمال الناس تفسر بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات .

والآن فلنتقدم إلى مسرحية (أبي شوشة)

أبو شوشة

اسم لعجل مدلل ، يرعاه (مؤنس بك) في ضيعته (كفر البلابل) ، ومن العجيب أن يكون عنواناً لمسرحية اسم عجل يخور ولا يمد لسانه بحوار في المسرحية ولا ترى له وجهاً على المسرح ، ولكن من يدقق قراءة هذه المسرحية لا يلبث أن يصل إلى ما توخاه المؤلف من هذا العنوان ، بعد أن يتضح له أن (أبا شوشة) ليس إلا رمزاً للحاضر الجاثم بكيانه القادر بظروفه وشواغله . (والحاضر) في هذه المسرحية عنصر هام وخطير

ترك مؤنس بك ماضيه في القاهرة منذ ست سنوات وهاجر إلى الريف وتزوج من حرائر أعيانه . له من زوجته رفيق مؤنس ، وله من توفره على الزراعة ومنتجاتها شغل وعزاء . نراه أول ما نراه في المسرحية ، محنقاً مكروباً ، لأن العجل (أبا شوشه) متوعك المزاج يعاف أكل العليق وعينه محمرة دامعة !! القصر الريفي في حيرة واضطراب ، الخدم يرقبون شفاء العجل العزيز الغالي لتعاود غبطة المزاج السيد المكروب الذي أرصد للعجل السيد خادماً يسهر على راحته

فجأة يهبط القصر نفر من الزوار من أعيان الريف ، بينهم حسنية هانم وزوجها (ظاظا بك) — وهما من سكان القاهرة — جاءا الضيعة لزيارتها بعد أن ذاع صيت نظامها ووفرة غلتها في دوائر القاهرة . فنرى مؤنس بك يضطرب ويرتبك لمرأى (حسنية) وكأنه فوجئ بمجيئها ، ولكنه يتغلب على ارتباكه ويرحب بالزائرين

وإذ يخلو لمؤنس وحسنية المكان بعد تمهيد دق المؤلف في إتيان مواقفه من غير تكلف ، نراهما منجذبين الواحد نحو الآخر ، متقابلين فماً لفم ، وسرعان ما ينجلي للقارئ أسباب ارتباك مؤنس واضطرابه . . . لقد كان مؤنس وحسنية متحابين ، متعاقدين على الزواج قبل أن يهجر مؤنس القاهرة ويقيم بيته وأعماله في الريف . ولكن حدث إذ ذاك أن توفي والده وطالعته تركة موروثة مرهقة بالدين تتدحرج نحو الإفلاس والبوار ؛ فأسقط في يده ، وخابت أمانيه في الزواج ، لأن كبرياءه حجزته عن أن يتزوج من حسنية الناعمة المثرية . فترك القاهرة بغتة واستقر في الريف يوم النهار من تركته بعد أن قطع كل رابط يربطه بالقاهرة وساكنيها . وكان أن تزوجت حسنية من ظاظا بك

هذا المشهد هو دعامة المسرحية وبيت القصيد فيها . . .

ها هما الإثنان يبعثان الماضي وذكرياته ، وها هو مؤنس يشد على يد حسنية في انقياد ، مهيباً بها أن تنسى الحاضر وأن ترجع بعين الخيال إلى مراتع حبهما ، فتزداد التصاقاً به ، وتدني فمها من فمه ، منغمغمة اسمه المحبوب ، القبلة تكاد تتم فصولاً ، الحب الخامد يتسرح من جديد و . . . .

ولكن يحدث في هذه اللحظة أن يرتفع خوار العجل أبي شوشة ؛ فإذا بمؤنس يجمد في مكانه ، وإذا بالقبلة لا تتم ، وإذا به يترك حسنية واجمة متعجبة ، ويطل من النافذة منادياً متسائلاً عن صحة العجل العزيز الغالي ! !

بادرة عجيبة ولا شك من جانب مؤنس تناقض الواقع الذي كان يعيش فيه منذ لحظة ببيان لسانه وكمال وعيه !

ويستدرك مؤنس ما أتاه من غير وعي بهذه البادرة النابية فيعاود الحديث عن الماضي ويستعين عليه في هذه المرة بطالعة بعض صور فتوغرافية قديمة تمثله مع حسنية في مواقف عديدة . ويبدو للقارئ أن مؤنس يحاول لاهثاً أن يستمد من هذه الصور إنقاذاً لخيالته ويقظة لحسه . وتقع يد حسنية بين هذه الصور على رسم للعجل أبي شوشة فتتبرم ؛ ثم لا تلبث أن تزداد عجباً على عجب ، إذ ترى مؤنس يأخذ بأسباب سرد مشرق عن ولادة العجل وحياته الأولى

وهكذا يبدو مؤنس متطوحاً بين (الماضي) الذي يشده بعيني حسنية ، وبين (الحاضر) الذي يجتذبه بخوار أبي شوشة ولا تجد حسنية موضوعاً للحديث غير الكلام عن الطقس .

ويفطن مؤنس إلى ذلك فيعتصر حسه من جديد ويأخذ في إطراء مفاتن حسنية ، فينشط حس المرأة أمام هذا الإطراء فلا تتوانى عن أن تعرض عليه أن يحضر الحفلة التي ستقيمها في القاهرة بمناسبة عيد ميلادها ، ولا تتحرج عن أن تناشده معاودة حياته الأولى في ظل حبها

مؤنس ينقاد إلى حديثها في شبه حلم لذيذ وقد غمره الماضي ، فلا نلبث أن نسمعه متبرماً بحاضره . وها هو أخيراً يقرر في نبر صوتي متقد أنه سيعود إلى القاهرة ، وأنه سيحضر حفلة عيد ميلادها . . . وأن الإنسان في وسعه أن يحقق ما يريد إذا صح عزمه على ذلك

وإذ هما يحتضنان ، يرن صوت الخادم وقد أقبل نحوهما . . . الخادم يدخل فرحاً معلناً أن « أبا شوشه » أكل عليقه ، وأن الصحة عاودته . . .

يا لسخرية الحاضر من الماضي ! !

نرى مؤنس ينتفض فجأة وكأنه خرج من حلم بعيد وينطلق نحو الباب والفرحة ترقص أمامه ، ويدعو حسنية إلى أن ترافقه إلى مذود العجل ؛ ولكنها ترفض فيتركها وقد نسي القاهرة وحفلة العيد ! !

هذا المشهد هو الرواية كلها ، وقد وفق تيمور في التمهيد لانطلاق الإيحاءات الباطنة التي كانت تطرق مؤنس وتجعله وهو لا يدري ينقض ما يبرمه وهو يدري . ووفق تيمور في هذا بطريق إيرادها جمات نفسية خاطفة كانت تلوح للأمر المزمع ، والغاية المقصودة

ويجري بعد هذا المشهد الحافل مشاهد إضافية ، نرى (حسنية) في أحدها تملن لمن جاءوا الضيعة معها أن (مؤنس) سيحضر حفلة عيد ميلادها بالقاهرة ؛ ولكن سرعان ما يحضر مؤنس وقد امتلأت نفسه نشاطاً وفاضت غبطة ليعلن الحضور بدوره أنه سيشترك في المرض الإقليمي عنتجاته الزراعية ، وكان قبل ذلك متردداً في هذا الاشتراك . تتمعض (حسنية) وتقطع الحديث وهي تقترح العودة إلى القاهرة ، لأن لديها ما يشغلها لإعداد حفلة عيد ميلادها . وإذ ذاك يتذكر (مؤنس) أمر هذه الحفلة ، ويبدي حيرته كيف يوفق بين الاشتراك في المرض وحضور حفلة القاهرة . . . ولكن (حسنية) تتدخل في الأمر تدخلاً عابراً من باب جبر الخاطر — وأغلب الظن أنها بدورها أحست فتوراً من الرجوع إلى شيء مضى وفات — ويعتذر مؤنس عن حضور الحفلة وكأنه أنقذ من ورطة قادمة !

وتنتهي المسرحية بأن ترحل (حسنية) إلى القاهرة لتعيش هناك في (حاضرها) ، ويبقى (مؤنس) في قصره الريفي ليعيش بدوره في (حاضره) .

كل هذا يجري ولم تر المؤلف يجعل بطلي المسرحية (مؤنس وحسنية) يحاولان تعليل تلك الإيحاءات الباطنة وتفسيرها بطريق المنطق ، بل جعلها تعرض نفسها خطفاً ، وبهذا خالف النهج الذي نهجه في مسرحيته الأولى (الصعلوك) وحسناً فعل .

* * *

والآن نتساءل ما الذي يلبس هذا الرجل (مؤنس بك) الفينة بعد الفينة ، والموقف واحد لم يتبدل زمانه ومكانه ، فنراه يتخبط وينقض فعلاً ما أبرمه كلاماً ويتأرجح بين قوتين عنيفتين تشده كل منهما من ذراع لتجتذبه إحداهما في النهاية ؟ ؟

ألا يرى القارئ معي أن هذا الرجل يحاول عبثاً إرجاع الماضي وبعثه بذكريات الذكرى ويحطام نفسه ويشخص المرأة التي كانت له شريكة فيه ؟ ؟ وأن الحاضر يأبى عليه ذلك ويسير على شرعته الأزلية من أن ما فات مات ، وأن لا رجعة لما أغرقه الزمن في لجته ؟ ؟

نعم هو هـذا . وأن الذي كان يلبس الرجل ويدفعه بقوة خفية إلى التناقض إنما هو سيطرة الحاضر الذي أقام لنفسه في الواعية الباطنة سلطاناً يدفع به وثبة الماضي إذا قدر له أن يستفيق من هدأته وتهيأ للانسراح بعد انكماشه ، والماضي بدوره له في الواعية الباطنة منازل ينطوي فيها على نفسه ولكنه يقنع من السلطان بأن يكون معين الصراع بين المادة والحافظة ، وأن يكون الشرفة التي نطل منها على المستقبل .

لا سبيل إلى إحياء الماضي ، تلك هي المسألة التي أثارها تيمور في مسرحيته — الماضي لا يعود — ومرد هذا أن النظرة إلى الأشياء تتغير بتغير الميول ، والميول تبدل أنواعها بمرور الزمن ، الزمن الذي يبلى كل شيء ويسير دائماً إلى الأمام دون أن ينظر إلى الوراء ، الزمن الذي يستبد فينا بحاضره ، ويدفعنا بشواغله والتزاماته إلى أن نحيا فيه . فكأن النظرة إلى الأشياء مقضي عليها بالتغير ، ومتى تغيرت النظرة تغيرت معها معالم الدنيا من إنسان وجماد .

لقد نال الزمن من (مؤنس) وهو لا يدري ، كما نال من نفس (حسنية) وهي لا تشعر ، ولم يكن حظها في هذا أرفق من حظ مؤنس ، وآية ذلك أنها حينما أجابت نداء (الماضي) من لقائها حبيب القلب الغابر وانساقت مع دفعاته الفاترة المتقطعة ، لم تستطع أن تدفع سلطان (الحاضر) بل كانت في محاولتها إحياء الماضي ، كما كان (مؤنس) ، متعثرة على الرغم منها .

ولو أن تيمور أجرى موضوعه على الرجل دون المرأة لأوقع بالمسرحية ثلمة ننفذ إليها منه بالمؤاخذة ، ولكنه فطن إلى ما لا يفطن إليه عادة غير المرتاض بصياغة القصة المتمرس بعرض موضوعه عرضاً صادقاً كاملاً .

التبعة والعقوبة
في المجتمع البشري القديم
للأستاذ رفعة الحنبلي

ساد المجتمع ، خلال العصور القديمة ، نوع من النظم الاجتماعية ، وضرب من المبادئ الفطرية ، أخذ بها طوال المدة التي جنح فيها إلى التفكير الهزيل ، والمعرفة الضئيلة ، والعلم القليل مما كان له أثره فيه . فاتسم بطابع خاص يتميز به عن بقية المجتمعات الإنسانية الأخرى ، ولم يقتصر على الثقافة فحسب بل تناول التقاليد والعادات أيضاً

وفي الواقع أنه إذا تقصى المرء أحوال المجتمع البشري القديم في الأزمنة الغابرة ، ودرس نظمه الاجتماعية ، وتفهم نفسية أفراده وأخلاقهم ، والتمس ميولهم ورغائبهم ، وتبين عاداتهم وتقاليدهم ، واتصل بهذه النظم على ضوء الدرس المنظم وعن طريق التتبع والاستقراء ، تكشفت له عن حياة اجتماعية متأخرة ، وبيئة ضيقة ، وعقلية محدودة وتفكير سقيم تتباين مع الحياة الاجتماعية الأخرى في المجتمعات الثانية وبيئتها وتفكيرها وعقليتها ، هذه الحياة الاجتماعية توقفنا على درجة من درجات رقي المجتمع وحضارته وتكشف لنا عن سمة من سمات الطبع والنفس ، ومظاهر من مظاهر الروابط الاجتماعية والقيم الخلقية

على أن هذه الحياة لا تزال يشوبها كثير من اللبس والغموض ، ولا تزال تكتنفها ظلمة كثيفة في كثير من أفيائها وإن أخذ بعض علماء الاجتماع — يدفعهم في ذلك حب البحث والاستقراء والحاجة الملحة إلى المعرفة — يبددون ما أحاط بها من ظلمة ، وما اكتنفها من شوائب

ومن النواحي التي درسها علماء الاجتماع ناحية جليلة خطيرة لها أثرها المباشر في الحياة الاجتماعية وفي مقومات المجتمع البشري أيضاً : هذه الناحية تعرف بالتبعة Responsabilité والتي عرفها المجتمع في الوقت الذي عرف الإنسان فيه العمل الاجتماعي واضطلع به ، إذ ذهب هؤلاء العلماء إلى أن التبعة كانت معروفة عند أكثر الأمم والشعوب القديمة . وقد استمدت بعض المجتمعات الحديثة نتفاً من قوانينها ونظمها فدمجتها فيما ابتكرته من نظم وقوانين حملت الإنسان تبعة ما يقوم به من عمل اجتماعي أو أدبي أو غيره .

والواقع أن المجتمعات البشرية تختلف باختلاف درجتها في سلم الحياة والارتقاء . فعلى قدر ما يكون المجتمع البشري من الرقي والحضارة يحتاج إلى نظم جديدة تتلاءم مع الحضارة والرقي اللذين أخذ بهما ؛ فالمجتمعات والحالة هذه لا تتمشى على نظم واحدة ، ولا تتقيد بقوانين واحدة ، بل لا بدّ لها من نظم مختلفة وقوانين متباينة تميز المجتمع الواحد عن الآخر وتصور نفسية أفراده وبيئتهم ودرجة رقيهم وحضارتهم

بقيت مبادئ التبعة التي أخذ بها المجتمع البشري القديم ، ردحاً من الزمن — قل أو كثر — خافية على كثير ممن يعالجون البحوث الاجتماعية حتى كشف عنها بعض كبار الباحثين ممن درسوا المجتمع القديم دراسة مكنتهم من إدراكها إدراكاً قد يكون تاماً أو لا يكون ، بعد أن وقفوا على خصائص الحياة

ورب معترض يقول : إن الدافع الحقيقي الذي حجز (مؤنس) عن معاودة حياته العاطفية مع (حسنية) هي أعماله بالريف وشواغله الملحة فيه . وهذا حق من ناحية أن هذه الأعمال وتلك الشواغل إنما هي من عناصر (الحاضر) ، والحاضر ، كما قررنا ، يفرض سلطانه علينا . بيد أن هذا ليس كل شيء ، لأن الظروف المحيطة بمؤنس وحسنية — كما رسمها المؤلف — كانت ظروفاً مواتية تسمح لهما باستئناف علاقتهما دون أن يخل ذلك بشواغلهما ، ولكن بشرط . . . وهذا الشرط أن يكون لاعج العاطفة المتأجج في قلبيهما متقداً قوياً كما هو الشاهد المألوف لدى الأكثرين ، لأن الإنسان يحيا بغرائزه وعواطفه أكثر مما يحيا بعقله ومنطقه ، وفي تلك الفترات التي يكون فيها الإنسان لحياة العاطفة لا يبالي بأي قيد من القيود . ولكن العاطفة القوية أو الحب المتقد لم يكن يعمر قلبي مؤنس وحسنية عند لقائهما الأخير . لقد كان الأمر غير ذلك فيما مضى ، ولكن الزمن أطفأ اللاعج المتقد وأوهن القوى النابض ، ولم يبق في قلب كل منهما من ذلك الغرام غير هيكل من عظام نخرة ترتدي مسوح (فينوس) تكفي أن تهزها اليد لتنهار .

زكي طليمات

الاجتماعية التي سادت ذلك المجتمع ، وبعد أن تفهموا المقومات الاجتماعية الجديدة . وما زال الباحثون الاجتماعيون من ذوى الاختصاص يسبرون غور هذه الحياة وهذه المقومات الاجتماعية بعد ما درست آثارها ، وعفت رسومها أو كادت ، فراضوا صعابها وجلوا شكوكها إلى أن وقفوا على عناصرها وعواملها ، وكشفوا عن أسرارها وخبيآتها ؛ وهم إلى ذلك - أى الباحثون - يؤمنون بأن القدامى من أفراد المجتمع كانت لهم من الآراء الفطيرة ، والتفكير الفقير ، والتقدير الهزيل ، ما حملهم على إلقاء التبعة لا على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع فحسب ، بل على كل الكائنات الحية من حيوان وجماد أيضاً

***

بدأ علماء الاجتماع ، في العصر الحاضر ، يدرسون المبادىء التي من شأنها أن تحدد كل عمل يقوم به الفرد في مجتمعه وما يتبعه من عقوبة وقصاص على ضوء علم النفس الحديث ، وعلم الأمراض النفسية Cycopathologie بعد أن كان المجتمع القديم يقيم حدها على كل فرد من أفراده ، دون أن ينظر إلى نفسية هذا الفرد وإلى الأمراض المتصلة بها التي تتناوره إبان حياته ؛ بل كان مآل نظم المجتمع القديم فرض العقوبة على أى امرىء ارتكب جرماً أو اقترف إثماً

والتبعة ليست ، في الواقع ، إلا نتيجة لعمل اجتماعي ، شرعياً كان أو غير شرعي ، يخالف ما تعارف عليه المجتمع وما ألفه الناس ، أو بعبارة أخرى نتيجة أعمال وأفعال اجتماعية يقوم بها أفراد المجتمع تتعارض مع القوانين أو النظم الموضوعة التي تستوجب التبعة ، فإذا ما خرق امرؤ حرمة الآداب والأخلاق ، أو نكث عهداً من العهود الاجتماعية ، أو اتهم برقة في دينه أو وطنيته ، أو احتفظ بعلاقة غير شرعية مع فتاة ، كان ذلك كافياً ، في نظر المجتمع ، لأن يحمل تبعة عمله وأن يعد مسئولاً

ولا بد للمرء أن يتساءل عن الأعمال التي قد ترضى الجماعات الإنسانية أو تغضبها إذا ما قام بها ، ولا بد له من أن يتفهم التقاليد والعادات التي تدنيه من المجتمع أو تبعده عنه ، كي يستبين طريقه على ضوئها ، ويتمشى حسب نظم المجتمع لئلا يقحم نفسه في مآخذ عنيفة ومزالق خطرة تستوجب التبعة والعقوبة

وماذا يعني بالتبعة ؟... هي قيام امرىء بعمل ما ، في مجتمعه أو في مجتمع آخر ، في حالتي النفع والضرر . فالمرء الذي يقدم على أعمال من شأنها تحدى النظم القائمة وخرقها والتي قد يتضرر منها المجتمع الإنساني يكون مسئولاً عن أعماله هذه ، كما أن المرء الذي ينشط إلى المحافظة على الآداب والأخلاق ، والذي يبذل له خدمة الأمة والإخلاص لها والتفاني فيها يكون مسئولاً عن هذا العمل أيضاً . فالتبعة إذاً تقع على عاتق المرء في الحالين المتقدمين وإن اتجه كل منهما اتجاهاً يختلف والآخر جد الاختلاف من حيث الوسيلة والغاية ؛ وإذا ما أبدلنا العقوبة بالمكافأة واللوم بالثناء ، فمن هو الذي يستحق العقوبة واللوم ، ومن هو الجدير بالمكافأة والثناء ؟ ... مما لا مشاحنة فيه إن الإنسان يكافأ على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ...

ألا ترى أن الأب يكافئ ابنه الأديب الوديع ويعاقب الطائش الشرير ؟ ... وكذلك المربى ؛ ألا تراه يغني الثناء العاطر على الطالب الخلوق المطيع ، وينحى باللائمة على النفور المتمرد ؟ ! والحكومة ، ألا تشعر أنها تكافئ رجالها المخلصين والعاملين بالأوسمة والرتب ، وتعاقب المجرمين والخائنين بالسجن والإبعاد والقتل أحياناً ؟ ... ألا ترى أن الجماعة البشرية قد أعدت جوائز قيمة ، أدبية ومادية ، للأفراد الذين يحملهم الإخلاص ويدفعهم الوفاء على التفكير بترقية المجتمع وتخفيف الآلام عن الإنسان ، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية ؟ أليس كل ذلك يدخل في حدود التبعة الاجتماعية على اختلاف شكولها وتباين غاياتها ؟ ! على أن العلماء لم يقصدوا بالتبعة إلى المعنى الذي ذهبنا إليه ، ولم يتجهوا الاتجاه الذي أخذنا به ، ولكن هي الحقيقة وهو الواقع ! ولم لا يكون المرء مسؤولاً عما قام به من صالح الأعمال كما يكون مسؤولاً عما جنته يداه من إثم أو جريمة ؟ ! وما التبعة في الواقع إلا صدى تلك الحياة الاجتماعية التي ارتضاها الإنسان لنفسه ، وتلك البيئات التي تكتنفها التقاليد والعادات ...

ومن هو المسئول — في الدرجة الأولى — في نظر المجتمع

لقد أعطت الجماعات الإنسانية أجوبة تختلف باختلاف حياتها الاجتماعية وبيئتها وثقافتها ، وتتباين بتباين أخلاقها وتقاليدها وعاداتها . على أنها حمّلت الإنسان — منذ الأزمنة القديمة — التبعة ، باعتباره أرقى المخلوقات الحية وأشرفها وأذكاها ، وأقربها من المدنية والحضارة ، حيث يقوم بدوره الرئيسى فى المجتمع ، إذ أنه يتمتع بعقلية نيرة تدفعه إلى استخدام الحيوان لشؤونه اليومية والماشية والاستفادة من النبات والجماد لمنافعه الشخصية والبيتية التى تتطلبها حياته الاجتماعية . وهو — فوق ذلك — يملك من الأهلية والاستعداد ما يجعله يحمل تبعة ما يقوم به من عمل . لذا نجـد الإنسان شاعراً بالتبعة ورازحاً تحت ثقلها منذ اليوم الذى قتل فيه قابيل أخاه هابيل

ولا يمكن الأخذ بالتبعة أو الإقرار بها إلا فى حالة خاصة ، بمعنى أن الإنسان إن لم يتمتع بعقل سليم وتفكير صحيح فلا جناح عليه بما يأتيه من عمل شائن أو فعل قبيح ؛ لأن سلامة العقل وصحة التفكير شرط أساسى — فى بعض المجتمعات — لإلقاء التبعة وتحمل العقوبة ، وإن أقرّ البعض هـذه التبعة على من لم تتوفر فيه هذه السلامة والصحة ، حتى أن بعضهم ذهب إلى إلقاء التبعة على الطفل والمجنون والأبله والمعتوه أيضاً ... وتمادت المجتمعات القديمة ، والحديثة المتأخرة ، فذهبت إلى أبعد من هذا الحد ، إذ ألقت التبعة على الحيوان والجماد ! !

وقد تتعدى هذه التبعة من شخص إلى آخر وإن لم يجمعهما نسب أو قرابة ، وتتجاوز الفرد إلى الجماعة ، وإن لم تكن بينهما صلة أو علاقة ، وتعرف حينئذ بتبعة الجماعة ، لـكنها تبقى — فى غالب الأوقات — تبعة غير محدودة Respousabilité indeterminée . بيد أن الجماعة التى تتحمل التبعة تكون ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة — ولو إلى حد ما — بصاحب الجريمة أو الإثم ، باعتبار أن أفرادها وحدة لا تتجزأ ، وباعتبار أن المتهم فرد منها ، كالجريمة التى يؤخذ بها هذا المتهم تؤخذ بها الجماعة ، والتبعة التى يحملها تشاركه الجماعة فيها ، والعقوبة التى تفرض عليه تنالها أيضاً على حد سواء ؛ وتبعة الجماعة إنما تكون فى الجماعات التى تعيش قبائل منفصلة الواحدة عن الأخرى ، وفى المجتمع القديم الذى يتبع نظام الطوطمية Totemisme ، والجماعات التى يرأسها شيخ هو أكبر أفرادها سناً Pater Familias ومن هذه الجماعات ظهرت أول مبادئ تبعة الجماعة التى تتعدى أقرب الناس إلى أبعدهم عن المتهم

وهنالك أيضاً بعض الجماعات ممن يقرون مبدأ التبعة الفردية فى جرائم خاصة ، ومبدأ تبعة الجماعة فى جرائم أخرى ؛ ففى حالة الجرائم الصغرى كالسرقة أو القتل ، إنما تكون التبعة فردية ، وتكون جماعية فى حالة الجرائم الـكبرى كالخيانة الوطنية وخرق حرمة الدين ، والثورة على الحكومة وقتل الملك وغيرها ... ففى هذه الحالة تسود التبعة جميع أفراد عائلة المتهم دون النظر إلى تفاوت درجة القرابة والأعمار بينهم ؛ كالجد والأب والأعمام والأولاد والحفدة يساقون إلى منصة الإعدام كالمجرم على حد سواء ؛ أما أقرباؤه الأدنون ، فيعاملون معاملة العبيد ويصبحون أرقاء ، توزعهم الحكومة على قادة الجند بمثابة رهائن ، ينقطعون للعمل ، ويحبسون على الخدمة ، وتصادر أملاكهم ، وتحجز أموالهم ، كما صودرت وحجزت أملاك أولئك من قبل

كذلك كان عدم الوفاء لصاحب الجلالة ، أو عصيان أوامره المقدسة ، يسبب للفرد عقوبة تذهب بحياته ، وتودى بأسرته إلى العذاب البئيس ، وتهوى بهم إلى أدنى درجات الاسترقاق والعبودية ؛ أما هو ، فيعدم ويحرق ، وأما زوجه وأولاده ، فيصبحون أرقاء ؛ أما أبواه وجداه وإخوته وأولاد أخيه ، فينفون من الأرض إلى أمد بعيد

وهكذا نجد أن هذه العقوبة المنيفة التى تعرّض صاحبها وأسرته ومن يلوذ به إلى الموت ، والتى تجعل من ذوى قرابته عبيداً أرقاء ، لم تستأثر بها أمة دون أخرى ، بل اشتركت أكثر الأمم فيها مع اختلاف العقوبة من حيث العنف والقسوة باختلاف شرائعها وقوانينها . ففى فرنسا مثلاً — أيام قيام الملكية فى ربوعها — كانت عقوبة النبيل والشريف الذى يرتكب أية هفوة فى حق الملك أو الامبراطور ، هى تجريده من رتبه العسكرية ، وإنزال درجته النبيـلة ، وإبعاده مع أسرته خارج المملكة ، أو الامبراطورية ، مع حرمانه هو وأسرته من العودة ثانية إلى بلاده ووطنه حرماناً قد يكون أبدياً ؛ وإن قدر له أن يعود دون عفو خاص من صاحب الجلالة ، فإنه يعدم حالاً دون أية محاكمة

أو أى تحقيق ؛ أما إذا لم يكن نبيلاً ، وكان ينتسب إلى عامة الشعب ، فعقوبته كما يقول الأستاذ Jousse : تماثل عقوبة الشريف فضلاً عن هدم منزله وإعفاء أثره . وإذا تعمق الباحث فى درس هذه التبعة ، ردّ دواعيها ومسبباتها إلى ذلك الاعتقاد السائد — قديماً وحديثاً — أن صاحب الجلالة هو خليفة الله فى أرضه ، فلذلك كان لهذا الاعتقاد من الأثر القوى فى نفسية الشعوب والأمم ما جعلها تشرع هذه العقوبة المنيفة لحفظ خليفة الله من الاغتيال وحرصاً على شخصيته المقدسة

والأمة العربية لم تعرف فى سالف عهدها التبعة الفردية بل كانت آخذة تبعة الجماعة باعتبار أنها ترى نفسها قائمة على التكتل وعلى المبادئ القبلية وإفناء الفرد إفناء كلياً فى المجموع . وكم من حرب ظل ضرمها يحتدم بين قبيلة وقبيلة لجريمة ارتكبها أحد أفراد هاتين القبيلتين ! ... وكم من تضحية فرضت على فرد لم يقترف إثماً ... ! أو على أفراد قبيلة لم يجنوا جريرة أو ذنباً ! .

لقد كان رأس القبيلة هو المسئول الأول والمباشر عن عمل كل فرد من أفراد جماعته ، كما أن القبيلة بأجمعها مسئولة عن هـذا العمل أيضاً ... وجاء الإسلام بالشريعة السماوية السمحة ، فمحا تبعة الجماعة وأقر تبعة الفرد ورسم حدودها وأمسى الفرد مسئولاً عن عمله دون غيره مهما ترادفت آثامه وتعددت جرائمه ، ولا تزروا وازرة وزر أخرى . . .

إلا أن العرب عرفوا ، قبل الإسلام ، نوعاً من التبعة الفردية ، فى حدود ضيقة محدودة ، كانت قائمة ما قام « نظام الخليع » على معنى أن القبيلة كانت تكره فى بعض الأحايين على مجازاة أحد أفرادها لخصال وخلال لا تقره عليها أو تتنافى مع بيئتها وأخلاقها — فتخلعه من ذمتها وتبعده عنها وتقطع صلته بها ؛ فالمرء الذى تلفظه القبيلة يتحمل هو وحده تبعة عمله وليس لقبيلته أن تتحمل شيئاً من هذه التبعة كما أنها لا تطالب بدمه إذا أهدر .

إن هذه الظواهر الاجتماعية ، فى صدد تبعة الجماعة ليست فى الواقع ، إلا صدى تلك الحياة الاجتماعية الضيقة وصدى ذلك النظام الاجتماعى الضعيف . وكثيراً ما كانت هذه التبعة جد عنيفة وقاسية ينوء الفرد بحملها ويرزح تحت ثقلها

لقد تقلص ظل هذه التبعة عن الإنسان فى مجتمعنا الحاضر وعفت رسومها وامحى أثرها إلا عند الجماعات المتخلفة عن المدنية والحضارة واتجه إلى التبعية الفردية إذ أصبح الإنسان مسئولاً عما يرتكبه من آثام وجرائم ، ولا شأن لأسرته وذوى قرابته فيما يرتكبه من إثم وجريمة ، وإن كان بعض الأمم التى بلغت أقصى درجات المدنية والحضارة ، وأسمى مراتب الرقى والتمدن ، تأخذ بها أحياناً فى حالات خاصة إبان الحروب والثورات .

[البقية فى العدد القادم] — بيروت رفعة الخنبلى

من الأدب الروسي

أنطون تشيكوف

الكاتب الروسي العالمي

[من كتاب « رجال النهضة الروسية الحديثة » لسيرج برسى]

للأستاذ خليل هنداوي

من عادة الناس القول : « بأن الإنسان لا يحتاج إلا إلى مترين من الأرض ، لكن هذه الحاجة هي حاجة الجثة الهامدة ، لا حاجة الإنسان الحي الذي لا يكفيه إلا هذا الفضاء . لا يطلب الانسان من الأرض قيد أقدام ، ولا يطلب مسكناً ، وإنما يطلب الأرض بأسرها ، والطبيعة بسعتها ، لكي تتفتح على آفاقها كل خصائصه ومزاياه بحريته ؟ »

هذا ما قاله — تشيكوف — عن أبحاثه ورسالته حين دخل الحياة الأدبية . ولد سنة ١٨٦٠ ، وبعد أن أنجز دراسته في جامعة بلده أتم دراسة الطب في موسكو حتى غدا طبيباً مشهوراً ، لكنه أخذ يسأم هذه الحياة العملية ، ويستهويه عامل الأدب . فنشر عدة أقاصيص في بعض الصحف ، وكان يؤجر عليها ، لأن موارده في العيش كانت ضئيلة . وقد جمعت قصصه الأولى ولم تكن مما تبعث على الرضا ، لأنها قصص كتبت لاجتذاب القراء وتسليتهم في أوقات فراغهم ، دون أن تنطوي على فلسفة معينة ، أو غاية معلومة . لكن الكاتب سرعان ما تبلورت نفسه ، واتسعت آفاق عقله ، فترك ذلك الجو الصبياني ، ودخل في جو ملؤه دراسة الإنسانية ، وهذه الدراسة طوقت روحه بالحزن والكآبة . أضف إلى ذلك أن بلده كان يكابد عناء الحروب في الحرب الروسية التركية ، هذه الحرب التي كان ثمنها تحرير بلغاريا مذ أوحت إلى الروس أنفسهم بإدراك حريتهم وأثارت في الشباب العزم للعمل على الوصول إلى هذه الحرية مهما بلغ الثمن وأرهقت المقادير . لكن هذا الأمل تحطم ، وهذه الجهود ذهبت عبثاً ، لأن الرجعية قد ظفرت ، وبظفرها طارت الأحلام ، فعرا النفوس شيء من الذهول أو التخدير ، ومن كان في قمة العزيمة والأمل جاء انتكاسه عظيما ، ووشكان ما دب في هذه القلوب النشيطة دبيب اليأس والعجز ، فمن القلوب من لاذ بالعزلة لوحده كأنه لا يريد أن يبدي جراحه ، ومنها من اعتصم بالعمل ليذهل ، ومنها من ظل يرسل الأنين تلو الأنين لعله يشفى . وهكذا يقال إن ضباباً رمادياً أحاط بحياة القوم ، حاملاً معه الكآبة . هذه هي المشاهد التي وقف عليها — تشيكوف — يراعته ، ولم تنتج روسيا مثله كاتباً استطاع أن يصور لنا اضطرابات هذه الفئة من الناس التي كانت تمشي خابطة على وجهها بدون فجر ولا رجاء .

يقول أحد أبطاله مفسراً الأزمة الخلقية : « ليس لي من العمر إلا ست وعشرون ، ولكن أراني لا أجهل أن الوجود يمشي بلا غاية ، خالياً من أي غرض ، وكل شيء فيه باطل زائل ، تتشابه فيه حياة ساكن جزيرة « سخالين » مع حياة ساكن « بنس » ؛ والفرق بين دماغ « كانت » ودماغ ذبابة ما ليس له قيمة حقيقية ، وأن لا شخص في هذا الكون على ضلال ولا على صواب »

وفكرة — العدمية — بكل ظواهرها المروعة تنعكس كثيراً ما في آثار تشيكوف ، وأقصوصة « القبلة » ليست إلا وجهاً من هذه الظواهر . فالعريف « ريابوفيت » بتأثير قبلة غير مقصودة ابث يحلم بالحب طوال صيف ؛ فهو ينتظر متألماً ساعة العودة ليرى جميلته المجهولة ، لكن حلمه لم يكن إلا وهماً ، إذ لم يكن هنالك أحد ينتظره . وبينما كان في أصيل يوم يسرح على ضفة جدول استسلم لتأملات تتفجر من قلبه : « الماء يفر إلى حيث لا يعلم أحد ، ولا لماذا . إنه يفر على الحالة التي مر بها في أيار الغابر . إنه عبر من الجدول إلى النهر الكبير ، ومن النهر الكبير إلى البحر ، ثم إنه تبخر واستطار ، ثم استحال مطراً . فهل أرى ذات الماء يركض جديداً على مرأى من عيني ؟ ! ما غاية ذلك ولماذا ؟ ! وهكذا أصبحت الحياة عند هذا العريف لغزاً معمى لا يدركه العقل ، تمشي على غير غاية ، هائمة بدون قرار

وقد أعطانا تشيكوف نماذج عدة لأفراد انتقاهم من بيئات مختلفة ؛ فكأنما يأخذ القارئ بيده ، يقوده إلى أي مكان يستطيع أن يعرض عليه فيه صوراً من المجتمع الروسي الحديث :

فى الحقل أو المصنع أو الطريق . وهو بعد ذلك لا يستقر فى موقف ، ومهما كانت المواطن التى يرتادها القارئ وراء آثاره لا يخرج منها إلا مشبعاً بهذه العزلة الروسية المؤلمة

يقدم لنا تشيكوف مثلاً للمحبة الضالة فى كثير الأحلام ، يضع رأسه حيث تطلع عليه منه أية فكرة جديدة . قد بحث عبثاً طوال حياته عن شكل عملى يلائم مثله الأعلى الذى يراه ، والآن تركه القدر أباً أو ترك له ابنة تكرهه على كسب قوتها وقوته ، هو يحب ابنته ، ولا يفتأ يردد اللوم لها على كثير من العيوب فى حياتها القلقة . فى أمسية ساحرة ، وجدت امرأة أيم — هذه الفتاة العابسة الشاردة ، فأخذت تعزيها بكلمات لطيفة ، وفى هذه الساعة تحدث الأيمان وشكا كلاهما للآخر ما عنده ، وأذاع الرجل عليها قصة حياته كلها ، وما ساقه إليه القدر ، فاهتمت بحديثه اهتماماً شديداً وأقبل عليها بقلبه وعاطفته . حتى ليظن الناظر أن القدر لم يجمع بينهما باطلاً ، وإنما لأمر يريده فى الجمع بينهما ، وفى الغد ركبت المرأة العجلة ، وكان يساعدها على الركوب ، وإن الآذان لتنتظر منهما الكلمة التى يجب أن تجمع ما بينهما ، ولكن لم يقل واحد هذه الكلمة . انطلقت العجلة ولبث الرجل جامداً كالتمثال . ينظر بعاطفة فيها فرح وألم إلى الطريق البعيدة التى توارت عليها السعادة التى فرت من بين يديه منذ قليل

وقصة « الغارة » تقدم لنا مثلاً لعاطفة الخوف الحادة التى تغزو لجأة نفس فتى متكبر اصطدم ببعض الحقائق . فالطالب « فاسيليف » وهو ذو طبيعة حادة دخل للمرة الأولى بيت الهوى ولكنه لم يستطع أن يتحمل التأثيرات المرهقة التى كان يكابدها ؛ وغزت رأسه أفكار مظلمة أحاطت به من كل مكان . فكان يصيح آخذاً برأسه : « أحياء ... أحياء ... لو حطمت هذا المصباح لوجدتم أن فى هذا شراً ، ولكن — هنالك — ليست المصابيح هى التى تحطم ، ولكن حيوات الخلائق البشرية . . . أحياء » ثم أخذ يفكر فى وسائل استنقاذ هؤلاء المنكوبات ، ويبدو له أن يجلس على قارعة الطريق مخاطباً كل عابر : « إلى أين تمضى ؟ ولماذا ؟ اخش الله ! » لكن هذه الفكرة سرعان ما غلب عليها الألم والريبة من نفسه ، وزاد عليه الألم حتى سحق قلبه ، ولكن فتيان مجتمعه لم يتألموا من أجله ، وإنما كانوا يعبرون غير ملتفتين إليه . فأحس الطالب أن عقله يفلت منه . فهدوه حتى إذا ما شفى مما هو فيه ذكر عواطفه الأولى ، وخجل منها ، وهكذا حطم مذهبه ، وخنق حلمه

فى الأوساط الاجتماعية ، وصابع العمال يكاد الإنسان يبدو أكثر ابتعاداً عن الأثواب المصطنعة والمظاهر الكاذبة . فإن المكافحة المتواصلة ضد الفقر لم تترك فرصة لغيرها . الحياة قاسية تحطم بلا رأفة أحلام السعادة ، ولا تدع للانسان — على الأغلب — رفيقاً يقاسمه أثقال الهموم والرزايا حتى الصغيرة منها . وقصة السائق تعطينا مثلاً لهذه العزلة ، هذا السائق المعدم فقد ولده فلم يأنس فى نفسه القدرة على احتمال هذه المصيبة . ووجد فيها ما يدفعه إلى أن يحدث الناس بها . ولكنه كان يبحث عبثاً عمن يستمع إليه . وفى يوم من أيام عمله ألفى نفسه وحيداً مع فرسه فناجاها : « نعم يا فرسى الصغيرة ! إنه مات ولدى الحبيب ، وتوارى سريعاً من دون علة . لنفرض أن لك مهراً ، وهذا المهر مات على حين غرة ، ألا يؤلمك فقده ؟ » أما الفرس فقد رنت إليه بعينين هادئتين لامعتين ، ونفخت من أنفاسها بين يدى صاحبها الذى أنجز قصة موت ولده

ولتشيكوف قصص رائعة وقفها على وصف الحياة القروية التى تشبه من وجوه عدة حياتنا القروية . ومن ذلك « القرويون » . فنيقولا خادم فى أحد فنادق « موسكو » ساوره داء عياء ووجد نفسه مضطراً إلى مغادرة عمله . وكان كل ما يقتصده يذهب إلى أيدى الأطباء والصيادلة . وعندما يئس من شفائه قرر أن يعود إلى قريته حيث أهله وأخوته ، لأنه يؤثر إذا فاتته الحياة أن يموت على مرأى من أهله . لقد ترك القرية حين كان فتى ثم لم تقع عليها أنظاره بعد ذلك . عاد هو وزوجه وابنته ، فوجد أباه وأمه وأخوين له مع أزواجهما وأولادهما فى هوان وفاقة ، وألفى أن الأسرة كلها تأوى إلى زريبة مظلمة قذرة يرن فى أجوائها الذباب ؛ فأدرك أن بقاءه فى موسكو كان الأجدر به ، ولكن هذا أمل خادع لأنه لا يملك أجر العودة . إذن يجب البقاء فى هذا اللحد الذى اختاره . وهكذا استقبلتهما هو وزوجه حياة كلها تعب ونكد وشقاء ليس فيها إلا النزاع والصفع والهوان بدون نهاية . إنه يريد أن يعود ، لأنه مل هذا الوجود ؛ ولكن أنى له

المـال ؟ فزادت صحته سوءاً على سوء ؛ فوعده صاحب قديم بشفائه ، فقام بجملة تجاريب كانت القاضية عليه . وقضت زوجه من بعده شتاءها فى القرية مع ابنتها . فأسرع دبيب الهم بخطوط الكهولة إلى وجهها الذى كان يحار فيه ماء الشباب ، ومالت قامتها ، وتبدلت حالتها . ومن ذا الذى يبقى على الهم ؟ أقبل الربيع والأم وابنتها تدخلان الكنيسة ثم تزوران ضريح فقيدها، ثم تطوفان سائلتين فى الطرق ! وتشيكوف نفسه يقول : « إن حياة عمالنا هى سوداء تمشى فى طريق الفسق ، أما حياة الشعب : عماله وفلاحيه ، فما هى إلا ليل مدلهم ماؤه الجهل والفقر والألم »

* * *

إن تشيكوف ببراعته الفائقة، ونظراته الشخصية، يصف الحياة الإيجابية والسلبية ؛ وهو ليس بذى طبيعة هجائية ، لأن كتابته يغمرها العطف العميق . وهو لا يسخر من أبطاله ، وإنما يشفق عليهم . عبقريته هادئة، مفكرة، عميقة، ولكن يخيل أحياناً أن هذا الهدوء ليس إلا قناعاً . وقد قال ناقد فيه : « إنه قلم ذو حنان » وهو فى قصصه ينبوع فياض ، لا ينفذ له موضوع ، ولا يتركه تحليل برغم بساطته . وهو لا يُعنى بالأسهاب الكثير ، والاستطراد المجهد ، لأنه يكفيه أن يطرق الجانب الحى من الموضوع .

جرب تشيكوف الكتابة المسرحية ، وله منها القوى المتين ، ومن ذلك مسرحية « الأخوات الثلاث » . هؤلاء كن يقضين حياتهن فى بلدة حقيرة تبعث على السأم ، خالية من الرجال اللامعين ، وليس فيها إلا من تشابهت وجوههم ، وتشاكلت نفوسهم، كأنهم نسخة واحدة تكررت نسخاً . وكان حلم هؤلاء السفر إلى موسكو ، لكن بلادتهن قضت عليهن بالبقاء ، فلبثن يتناقشن ويتجادلن متفلسفات فى مواضيعهن . وقد اتفق أن نزل المدينة ثلة من الجند ، فاجت فيهن الحياة ، وكان لهن حوادث حب مع الضباط دامت حتى يوم الرحيل .

قالت الكبرى : إنهم رحلوا . . . سنبقى وحدنا ! والحياة الساكنة ستبدأ .

فقالت الثانية : إنما يجب العمل ، لا شىء يعزينا إلا العمل !

وقالت الثالثة معانقة أختيها فى حين راحت الموسيقى العسكرية تعزف لحن الرحيل : يا أختىّ ! إن حياتنا لم تنته بعدُ إننا سنحيا .

هذه الموسيقى تصدح طربة . . . رويداً رويداً ! إننى أحس به . . . سنعلم غداً لماذا نحيا ولماذا نتألم !

هذه ناحية قوية من نواحى فلسفة تشيكوف البسيطة ، وهى بمجموعها تنم عن (عجز عن الحياة مشوب بأمل مبهم . . .)

* * *

إن تشيكوف فى الحقيقة منحة الأدب الروسى ، وغرسة لم تتعهدها إلا تربة عرقه . ففى نزوعه إلى الحرية ترن ألحان تولستوى ؛ وفى ميله إلى شعراء الماضى بالألم يلوح وجه « دوستويفسكى » كأنما آثار كبار الروس تتبين خلال سطوره .

وقد يشبه تشيكوف من نواح عدة « موباسان » و « إبسن » لكنه لا غموض ولا إبهام فيه ، لأن الغموض النرويجى لا يلائم روح الأدب الروسى الذى ينزع إلى مجابهة المسائل الملونة فى الحياة مجابهة صريحة عنيدة . ولقد حار فى تحديد قيمته النقاد فمنهم من وصفه بأنه كاتب « خلى » لأن كتابته لا تدعو إلى الثورة التى برزت فى بعض آثار غيره ، ومنهم من وجد فيه متشائماً لا يتفاءل فى شىء من الحياة الروسية ، لأنه ملتفت إلى وصف الآلام أو الجهود النازعة إلى طلب حياة تكون أحسن أثاثاً ورئياً

ولعل فى الرجوع إلى بعض سطور له ما يفيدنا فى توضيح صفات هذه الشخصية الفذة ، ومما يقوله : « إننى أخاف أولئك الذين يفتشون عن ميول ورغبات خفية بين السطور ، وأولئك الذين يريدون أن يجدوا فىّ محرراً أو محافظاً . . . إننى لست من ذلك فى شىء . . . لست بالمحرر ولا بالمحافظ ، ولا بالراهب ولا بالخلى ، وإنما أنا رجل أمقت الكذب والصولة فى أى مكان وتحت أى مظهر . . . لا أريد أن أكون إلا فناناً . . . وهذا كل شىء » ولكن هذا الفنان الحر الذى أبغض الكذب والصولة فى المعنى الذى تفهمهما لم يستطع أن يكون إلا محرراً للانسان بأوسع معنى للتحرير ، ولم يكن بذلك المتشائم الذى تمثلوه ، لكنه كان كاتباً يتألم لمثله الأعلى ، ويوقظ بكتاباته الأمل فى الخروج من غسق الحياة التى وصفها . وقد تبدى فى بعض مراحله أنه مؤمن بمستقبل الإنسان والإنسانية ، فيقول فى محاورة له لبستانه : « أتعلم بعد جيلين أو ثلاثة أن الأرض ستصبح بستاناً زاهراً

وإذ ذاك كم تغدو الحياة جميلة ! » وهو الذي يقول بأن الإنسان قوة الأرض المركزية « وينبغي للانسان أن يعلم أنه أسمى من كل ما في الطبيعة ... إننا أكوان سامية عظيمة ؛ وحين يتسنى لنا أن نعرف كل قوى العبقرية البشرية نغدو نظراء الآلهة »

لكن هذه الآمال الكبرى لم تحل بينه وبين وصف عجز الإنسان في كل زمان ومكان ، فهل تأتي ذلك منه بطريق المناقضة ؟ نقول : لا ، لأن تشيكوف إذا لم يشك لحظة في تقدم الانسانية فانه ليتألم ، ويبعثه على الألم تشاؤمه الأسمى النزاع إلى السمو ؛ هذا التشاؤم الإنساني تجاه ما يخور العقل أمامه عجزاً ، وهذه العاطفة تتألم وتيأس إزاء خبط الحياة وعصف الموت

يقول أحد أبطاله : « إني إذاً ما خشيت الحياة ولم أفهمها ، فعندما أرقد على بساط من الأعشاب . وأتأمل طويلاً في حشرة ولدت في مطلع الليل ، لأتفهم شيئاً من وجودها . يخيل إلي أن حياتها ليست إلا مرحلة من الرعب والذعر ، فيها أرى نفسي ، وأتمثل خاطراتي ... كل شيء يروعني لأني لا أفهم العقل ولا نهاية الأشياء . لا أفهم شيئاً ، ولا أدرك أحداً . . . أما أنت فاذا كنت تفهم فأحر بي أن أهنئك ... » و « حين ينظر الإنسان طويلاً في السماء الزرقاء المترامية ، فالأفكار المنبهثة والنفس تتحد اتحاداً خفياً في عاطفة عزلة عميقة ، وخلال لحظة واحدة يشعر الفكر بوحدة الموت ولغز الحياة اليائسة المروعة »

إن هذا اليأس الشامل ، وهذا الشقاء الذي تحدث عنه تشيكوف يتمثلان في آثار كل الشعراء والفنانين الروس البارزين . ومن منهم لم يرسم الحياة بهذه الخطوط المجعدة ، ولم يجعل فؤادها مغموراً بهذا اليأس !

على أن تشيكوف - بما أوتي - رأى وأدرك وجهي الحياة : وجه تقدمها التاريخي والاجتماعي ، ووجهها الآخر الذي يحيط بها من كل ناحية : هـذا الوجه المظلم المجهول النائم تحت أنفاس الموت الباردة

« حلب » خليل هنداوي

فى المخبـــأ ...

للأســتاذ محمد محمود دوارة

عشنا لنرى ما لم يكن يخطر لنا على بال . واضطرتنا حوادث الأيام إلى أن نأتى أعمالاً لو أنا أنبئناها قبل اليوم لنسب إلينا الجنون المطبق ! ...

انقلبت جميع الأوضاع رأساً على عقب .

كان الظلام مبعث الرهبة والخوف ، فأمسى هو الملجأ منهما

كان المنزل هو المكان الذى يتوفر فيه أمن المرء وطمأنينته فأصبح الهلاك كل الهلاك فى البقاء بالمنزل .

كانت الشجاعة فى الثبات أمام الأخطار والمكاره ومجابهتها وجهاً لوجه فإذا هى فى الفرار والهرب .

كان النهار معاشاً والليل لباساً فإذا النهار غير معاش والليل هلاك .

كان القمر فتنة الكون فى لياليه الباهرة ، وكان نجوى الشاعر والعاشق والفنان ، فإذا هو علامة من علامات الشر ، ونذيرٌ من نذر الدمار والخراب .

فسبحان الذى يغير ولا يتغيّر ...

***

بعد منتصف الليل والكون غارق فى بحار الكرى تدوى فى الفضاء فجأة أصوات منكرة متقطعة متكررة لا عهد لنا بها من قبل ، فكأنه قد نفخ فى الصور ، وجاء يوم البعث والنشور .

يثب المستدفئ من فراشه الوثير وكان لو خيّر بين تركه أو خسارة نصف ما له لضحّى بالمال غير متردد فى الاختيار .

وتخلُ الشوارع فى تلك الساعة التى اعتادت فيها الفراغ إلا من متسكع لا مأوى له ، أو حارس تعلم بالتجربة كيف ينام وهو واقف ، أو مريد جعل من ليله نهاراً .

رجال ونساء وصبية وأطفال كلهم مفزع مضطرب . كلهم صامت كأن لم يخلق له لسان ولا شفتان ، وكلهم سريع الخطى لا فرق بين هرم وشاب ، ولا بين عجوز وفتاة فى عنفوان الصبا والشباب .

قف فى تلك الساعة وتأمل من الناس ...

هذه جارتى الحسناء التى اعتادت أن تقف أمام المرآة نصف النهار لتخرج إلى النـاس فتنة وسحراً لا يقاومان ، ها هى قد خرجت تهرول بوجهها الذى خلقه الله . لم تمكنها المفاجأة ولم يمكنها الخوف من الكذب على عباد الله .

وهذا جارى الذى لم أكن أراه ولم يكن يراه الناس إلا منتفخ الأوداج مصعر الخد متبختراً يمشى الهوينى كأنه الهودج أو الديك الروى ، ها هو الآخر يهرول فى مشيته ضارباً بأصول العظمة والكبر ومشية الحكام عرض الحائط

وهذا الرجل الذى قطع حبل السكون بضراعته إلى الله تعالى وبدعوة رسله وأنبيائه وأوليائه ، هل رأيته فى الصباح وسمعته وهو يسب الأديان جميعاً لسبب من أتفه الأسباب ؟

ما أروع الفرق بين الليل والنهار فى هذه الأيام !

وما أقرب المسافة بين إيمان الإنسان وكفره ، وبين أمنه وخوفه وبين هداه وضلاله !

وفى المخبأ فى كل ليلة من ليالى الغارات تستطيع أن تشهد وأن تسمع ما لاعين شهدت ، ولا أذن سمعت ، قبل هذه الليالى السوداء !

***

دخل المخبأ متأخراً عن رواده بقليل رجل يحمل فى إحدى يديه مصباحاً كهربائياً (بطارية) يستعين به بين الفينة والفينة على تعرف طريقه ، فما كاد يطأ بقدميه بابه حتى ضغط زر المصباح ليرى ما أمامه ، ولكنه سرعان ما ارتد إلى الوراء مفزعاً مضطرباً إذ تعالت صيحات الاحتجاج والتوبيخ الموجهة إليه من كل جانب

— من هذا الحمار الذى يريد ضياعنا فى شربة ماء ؟ !

— من هذا المجرم الذي يريد قتلنا ؟ !

— إطفئ النور أيها المغفل

— الله ، الله ... أتريد قتلنا بمصباحك كما قتل مصباح آخر قوماً آخرين بالإسماعيلية ؟

* * *

ووسط ذلك السكون الرهيب والظلام الدامس انبعث صوت متحدث رزين تدل نبراته على فرط الرسوخ في العلم

قال زاده الله علماً ومعرفة :

— الصمت مطلوب في هذه اللحظة يا إخوان، لأن طيارات الأعداء بها أجهزة خاصة لالتقاط أصوات المتكلمين وهي من الدقة بحيث لا يخفى عليها حتى همسات الهامسين ... ضموا ألسنتكم في أفواهكم، وإن استطعتم فاكتموا أنفاسكم على قدر الاستطاعة ! بهذا حكم الله وبه قضى، ولا راد لقضائه سوى رحمته . واعلموا أن كل من يجازف بالحديث أثناء تحليق الطائرات في الجو كأنه يريد أن يدل الأعداء على مكاننا ، أو بمعنى آخر كأنه يريد القضاء على نفسه وعلينا جميعاً

ولست أدري هل صدّق الناس قول ذلك الخبير العجيب أم لم يصدقوه، فإن واحداً منهم لم يعترض على ما قال ولم يحاول مناقشته ، ولكني لا أشك لحظة في أن جارتي العجوز قد آمنت بكل كلمة من كلامه ، وإلا فما بالها تكتم أنفاسها ذلك الكتم الشديد الذي جعلها في آخر الأمر تعلن إفلاسها في تلك المحاولة العسيرة قائلة : يفعل الله ما يشاء ... إنني أكاد أموت اختناقاً

ثم جازفت وعادت سيرتها الأولى في استنشاق الهواء ونفثه بالكيفية المعتادة

* * *

وعند مدخل المخبأ وقفت مع بعض اللاجئين فراراً من الجو الخانق في داخله كان بيننا جندي من أهالي الصعيد يظهر من لهجته الجافة أنه لم يتلق أي نصيب من التعليم أو التهذيب

ومما يدل على حاجته الشديدة إلى دروس في الذوق أنه اختار هذه المناسبة ليحدثنا عن جماعة لجأوا إلى مخبأ في بلد من البلاد المنكوبة بالغارات فأصيب ذلك المخبأ وهم فيه بقنبلة مباشرة نسفته نسفاً وجعلت من فيه أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقري !

وفي أثناء حديثه ظهرت أنوار المصابيح الكاشفة منعكسة على السحاب فأراد أحدنا أن ينتهز فرصة ظهورها ليحول التفاتنا إلى غير ذلك الحديث المقلق للراحة حديث الجندي الأبق ! فقال وهو يشير بسبابته إلى حيث تلك الأنوار :

— أنظروا ! ها هي الأنوار الكاشفة قد بدأت عملها

ولكنه ما كاد يفعل حتى انقض الجندي على ذراعه الممدودة في الفضاء وإذا به يجذبها في شدة وعنف قائلاً في غضب ليس بعده غضب :

— أأنت مجنون يا هذا ؟ أتريد أن ترى الطيارات ذراعك الممدودة وسبابتك الموجهة إليها فتعرف مكاننا ولا تتركنا إلا أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقري كما حدث في ...

واستأنف حديثه كما بدأه . . .

* * *

وردد الفضاء صوت انفجار أول قنبلة مضادة للطائرات ، ثم تلاه أصوات متلاحقة لقنابل أخرى تتفاوت في الشدة والقوة فسرت في المخبأ دمدمة رهيبة تلاها صمت كصمت القبور لم يقطعه إلا صوت امرأة تخاطب زوجها قائلة :

— هذا صوت قنابل الطيارات . إنهم يضربون البلد ! لا بد من الهجرة غداً

فأجابها في صوت ضعيف مستكين :

— ليست هذه قنابل الطيارات

— ماذا تكون إذن ؟ لا بد من الهجرة غداً . . . غداً من الفجر بإذن الله . هل جننت حتى أعيش في هذا الجحيم ؟

— ليست هذه قنابل الطيارات . قلت لك إنها المدافع المضادة لها

— بل هي قنابل الطيارات

— ليست هي قنابل الطيارات

— بل هي قنابل الطيارات

— ليست...

وشفع كلامه في هذه المرة بحركة صاحت على أثرها المرأة صياحاً منكراً، وإذا بها معركة زوجية من الصنف الحاد

وطغا صوت المرأة على صوت أضخم المدافع وأقواها صوتاً

***

وكان الأستاذ كامل قد احتسى كأساً أو كأسين غير حاسب للغارات حساباً؛ فلما فاجأته غارة الليلة وهو في نشوته اللذيذة هبط إلى المخبأ وهو يلعن الحرب ومن كان السبب في شبوبها

وهناك انتبذ ركناً قصياً واستسلم للتفكير

ولكنه لم يهنأ بجلسته طويلاً، إذ صاح صبي من الصبية كان يجلس إلى جواره قائلاً:

— هنا رجل سكران يا ماما... في المخبأ رجل سكران طينة... إنني أشم رائحة الخمر. وأيدته امرأة عجوز قائلة:

— إن رائحته كبرميل من الخمر القذرة

وإذا بدرديس أخرى تقول:

— إن وجوده بالخندق نجاسة!

فلم يسع كامل أفندي إلا أن ينفلت من مكانه في سكون تاركا القوم قبل أن يكشفوا أمره... ومن يدري ماذا يفعلون به حينئذ؟!

وأقسم من تلك الليلة ألا يذوقها إلا نهاراً...

***

في المخبأ عجائب لا تجتمع في مكان آخر، وفيه مفارقات لا تخطر على بال

ها هنا رجل جبان رعديد ينتفض من الفزع، بينما أخذت طفلة في الخامسة تشجعه وتهون الأمر عليه

وهناك فتاة عابثة تضحك من كل شيء ومن لا شيء

في المخبأ لمحات من الفكاهة الصافية الحلوة وصور عابسة من الأمر المرير. وإذا كنت لم تر السعادة مرتسمة على وجه من الوجوه فتعال إلى المخبأ وانظر إلى وجوه الخارجين منه بعد انتهاء الغارة وكأنهم يبعثون!

أما إذا أردت أن ترى الهم في أقتم صوره فانظر إلى ذلك الوالد وهو يجلس إلى جوار زوجته المريضة وقد حمل على يديه ولداً من أولادها بينما حملت هي آخر، بينما جلس بينهما ثلاثة أو أربعة آخرون.

(السويس) محمد محمود زواره

٢٠ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس — عاداتهم

من العادات التي تراعيها طبقات الشعب أن تذهب العروس ظهر الأربعاء الأول أو بعيد الظهر، أو يوم السبت إذا كان الزواج يتم مساء الإثنين، إلى الحمام في أبهة واحتفال[1]. ويسمى هذا زفة الحمام. فيتقدم الزفة فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع[2]. وكثيراً ما تنتهز الفرصة للاحتفال بختان الولد؛ فيسير هذا وحاشيته خلف الموسيقيين بالطريقة السابق ذكرها. وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز أو الساذج. ويوجد أيضاً سقاء يروى ظمأ السائرين، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقماً من الساذجة أو المذهبة، أو من الصيني مملوءاً بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر. ويحمل الآخر مبخرة من الفضة يحرق فيها العود وغيره من المواد العطرية، ولكن يندر أن تسير الزفة بهذه الطريقة. وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات، يتقدمن اثنتين اثنتين، وتتلوهن الفتيات العذارى. وبلبس المتزوجات الملابس العادية ويتدثرن بالحبرة الحريرية السوداء؛ أما الأخريات فيلبسن الحبرة الحريرية البيضاء أو الشال. ثم تلبسهن العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية قرنفلية أو وردية، أو صفراء، أو ذات لونين معاً على هيئة خطوط عريضة. غالباً ما تكون وردية وصفراء. ويحمل المظلة من قوائمها الأربعة المعلق على كل منها منديل مطرز، أربعة رجال. ويفتح صدر هذه المظلة. وتختفي العروس تحت ملابسها فتتدثر من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بشال كشمير أحمر، أو نادراً بشال أبيض أو أصفر، ويتوج رأسها بغطاء من الورق المقوى يوضع عليه الشال فيحجب عن الأنظار وجهها وملابسها الثمينة وحليها خلا قُصة أو قُصتين[1]. وحلى أخرى أحياناً من الماس والزمرد تعلق على هذا الموضع من الشال الذي يغطي الجبهة. ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها، وامرأة أخرى تروح عليها عند ما تشتد الحرارة بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود يزين أسفلها مرآة صغيرة. وقد تقام زفة واحدة لعروسين معاً تحت مظلة واحدة. وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقاً ملتوياً ليطول العرض. وتتوجه إلى اليمين عند البدء في السير؛ ويأتي في ذيل الزفة فرقة موسيقية أخرى مثل الأولى أو فرقة من طبالين اثنين أو ثلاثة. ويلاحظ أن السائرات في زفة العروس من الطبقة السفلى يزغردن كثيراً. ويزغرد كذلك نساء الطبقة الفقيرة كلما شاهدن زفة



(شكل ٤٦) زفة عرس « قسم أول »

وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها فيمضين ساعات أو ساعتين على الأقل في الاستحمام واللعب وتناول الطعام. وكثيراً ما تستأجر العوالم (القيان) لتسليتهن في الحمام. ثم تعود

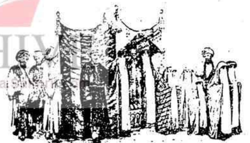
(١) وقد رأيت مرة هذه الزفة وأخرى سأصفها فيما بعد تسير بعد ذلك الوقت بكثير وتعود بعد الغروب بساعة

(٢) ونوع الموسيقى على العموم بدائي وتعزف عادة ألحاناً شعبية

(١) أنظر وصف هذه الحلي في الملحق

الزفة بالنظام نفسه . ويتحمل أهل العروس نفقات الزفة ، إلا أن العريس يقيم المأدبة التي تعقب ذلك

وتعود العروس من الحمام إلى منزل أهلها فتتناول مع رفيقاتها العشاء . وتصحبهن القيان لاستئناف اللهو . وتدور أغانيهن على الحب والزواج . وبعد ذلك تعجن بعض الحناء وتضع العروس قطعة من العجين في يدها ، ثم تتناول (النقوط) من ضيفاتها ، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة في تلك العجينة حتى لا يبقى موضعاً فيها ، فتقشطها العروس حينئذ بعيداً عن يدها على حافة وعاء مملوء ماء ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها وتربطها بالكتان حتى الصباح ، فتصبغ بلون أحمر برتقالي قان . وتستعمل المدعوات ما تبقى من الحناء لصبغ أيديهن . وتسمى هذه الليلة (ليلة الحنا)



(شكل ٤٧) زفة عرس «قسم ثان»

ويقيم العريس الحفلة الكبرى في هذه الليلة ، وأحياناً في اليوم السابق . فيعرض (المحبزون) ألعابهم أمام المنزل أو داخل الفناء إذا كان المنزل واسعاً . وقد وصفت الألعاب الشائعة الأخرى التي تعرض على المدعوين لتسليتهم .

وتزف العروس إلى منزل عريسها في اليوم التالي . وتسمى هذه الزفة لأهميتها (زفة العروسة) . أما الزفة السابق وصفها فتسمى (زفة الحمام) لتمييزها عن الأخيرة . وقد تسير العروس إلى الحمام بغير أبهة أحياناً تقليلاً لمصاريف الاحتفال وتكون الزفة إلى منزل العريس فقط . وزفة العروس كالزفة السابقة تماماً . وتتناول العروس الفطور مع حاشيتها ثم تبدأ الزفة بعد الظهر ، فتسير ببطء وانتظام كزفة الحمام سيراً طويلاً خلال الشوارع الرئيسية لأجل العرض ولو كان منزل العريس قريباً . وقد تدوم الزفة ثلاث ساعات أو أكثر عادة . وقد يتظاهر أمام الزفة مبارزان لا يلبسان غير السراويل ، أو يتضارب فلاحان بالنبوت أو بغيره . وترحب العائلات الموسرة بمن يجهد تسلية المتفرجين بحيلهم وألعابهم المعجبة أثناء زفة العروس ، وتقدم إليهم هدايا جميلة[1] . وحينما زوج السيد عمر نقيب الأشراف الذي كان الوسيلة الكبرى لبلوغ محمد على ولاية مصر ، بنته منذ حوالي خمس وأربعين سنة سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه وأخرج أمعاءه على صينية من الفضة ، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة ولزم السرير عدة أيام قبل أن يشفى من آثار هذا الجنون الكريه . وضرب آخر ذراعه بسيفه أمام المتفرجين ثم شد جرحه قبل أن يخرج السلاح بوضعة مناديل تشربت بالدم . وقد وصف لي هذه الألعاب شاهد عيان . وهناك مشهد أكثر غرابة وأشد إثارة للاشمئزاز لا يقل شيوعاً في هذه المناسبات عادة إلا أنه يندر أن يشاهد الآن[2] . وقد يعرض الحواة أيضاً حيلاً مختلفة إلا أن أكثر الألعاب تكون تقليداً للمعارك . وقد تعرض مثل هذه الألعاب في الاحتفال بختان، وقد تسير في الزفة العظيمة عدة عربات يركبها صناع وتجار من مختلف الفنون والحرف المارسة في العاصمة يتلون أعمالهم العادية . ويوجد في إحدى العربات بعض الرجال يصنعون القهوة ويقدمونها إلى المتفرجين أحياناً ، وفي عربة أخرى يجلس بعض الموسيقيين ، وفي عربة ثالثة بعض العوالم . وتركب العروس في مثل هذه الزفة عربة أوربية مقفلة ، ولكن كثيراً ما تركب العروس وقريباتها وصديقاتها

---

(١) وأكثر ما يشاهد في هذا الوقت العمل الشاق الذي يقوم به سقاء يطلق عليه لقب (قيم) ، ليحصل على هدية ولقب زهيد . فيحمل قربة ثقيلة تملأ رملا وماء أطول وقت دون أن يستريح بالقعود إلا إذا حبا . وقد شاهدت أخيراً في زفة عرس قيما يحمل قربة من الرمل والماء تزن أكثر من قنطارين ، ابتداء من غروب اليوم السابق قبل الزفة وأثناءها حتى الغروب

(٢) وقد وصفه «بركهاردت» وصفا صحيحا في كتابه «الأمثال العربية» (ص ١١٥ — ١١٦)

الجير فوق البراذع المرتفعة ، ويتقدمهن الموسيقيون والمغنيات ويتلوهن فرق أخرى في نهاية الزفة

وتؤدب للعروس ورفيقاتها مأدبة عند بلوغهم منزل العريس ، وسرعان ما تنصرف الصديقات وتبقى أم العروس وأختها وحدهما معها أو إحدى قريباتها الأخريات وامرأة أخرى تكون (البلانة) عادة ، وتسمى الليلة التالية (ليلة الدخلة)

ويبقى العريس في الدور الأسفل ، ويذهب قبل الغروب إلى الحمام فيغير ملابسه وقد يغيرها في المنزل ؛ وبعد أن يتناول وجبة العشاء مع بعض أصدقائه ينتظر قليلاً إلى قبيل الصلاة أو إلى ربع من الليل ، ثم يذهب حينئذ – حسب العادة الشائعة – إلى أحد المساجد المشهورة مثل مسجد الحسين لإقامة الصلاة ؛ وتقام له بهذه المناسبة زفة إذا كان شاباً ، فيتوجه إلى المسجد مسبوقاً بفرقة من طبالين وزمار أو زمارين ، ويصحبه بعض أصدقائه وحاملي المشاعل : والمشعل عبارة عن عصا طويلة ينتهي طرفها الأعلى بإطار إسطواني من الحديد يوضع فيه خشب مشتعل ؛ وقد يكون لها أكثر من وعاء واحد للنار (أنظر شكل ٤٨) ،



(شكل ٤٨) مشاعل

وتسير الجماعة إلى المسجد عادة بخطى سريعة ونظام قليل ، وتختم الزفة فرقة موسيقية كالأولى أو فرقة طبالين . ويلبس العريس عادة قفطاناً ذا خطوط حمراء وجبة حمراء ويتم بشال من الكشمير باللون نفسه ، ويمشي بين صديقين في مثل ثيابه . وتقام الصلاة للاحتفال فقط ، وفي أكثر الأحيان لا يصلي العريس مطلقاً ، أو يصلي من غير وضوء مثل المماليك الذين يقيمون صلاتهم خوفاً من سادتهم فقط[1] . وتعود الزفة من المسجد في نظام أتم وأبهة أعظم وبطء شديد . وربما كان سبب ذلك أنه لا يليق بالعريس أن يسرع إلى المنزل ليحظى بعروسه . ويتقدم الزفة – كما سبق – موسيقيون وحاملو مشاعل ، يتبعهم رجلان يحملان على كتفيهما إطاراً معلقاً في مدراة يتدلى منه ستون فانوساً صغيرة أو أكثر مقسمة إلى أربع دوائر تعلو إحداها الأخرى ، ولا تثبت الدائرة العليا بحيث يستطيع أحد حاملي الإطار أن يديرها من حين لآخر . وينير لألاء هذه الفوانيس والمشاعل الكثيرة الشوارع التي تمر فيها الزفة ، فتحدث تأثيراً جميلاً يستحق الاعتبار . ويتقدم العريس وأصحابه وغيرهم في شكل حلقة مستطيلة متقابلين وفي يد كل منهم شمعة أو أكثر ، وأحياناً يحملون أغصاناً من شجر الحناء أو بعض الزهور عدا العريس وصديقيه على كل جانب ، وهم يمشون في مؤخر الحلقة التي تشمل عشرين شخصاً أو أكثر . وكثيراً ما يقف الموكب برهة يغني أثناءها أحد رجال الحلقة أو صبيانها أنشودة العرس ، ويقف أثناء ذلك دق الطبول ونغمات الزمار الحادة التي تبلغ مسامع العروس قبل وصول الزفة إلى المنزل بنصف ساعة أو أكثر . وينتهي الموكب كما سبق بفرقة موسيقية ثانية

هذه هي الطريقة الشائعة في زفة العريس . وهناك طريقة أخرى أكثر اعتباراً تسمى (زفة ساداتي) يسير العريس فيها بين أصدقائه كالطريقة السابقة وبين حاملي المشاعل دون الموسيقيين ، ويستخدم مكان هؤلاء رجال يسمون لاحترافهم الغناء في مثل هذه الأوقات (ولاد ليالي) ويتوجه العريس بين هذه الحاشية إلى المسجد . ثم يعود الموكب على مهل ويشرع المغنون في الغناء أو إنشاد الموشحات في مدح الرسول (صلعم) ويرتلون متعاقبين ما تيسر من القرآن بعد الوصول إلى المنزل ، ثم يقرأون جميعاً الفاتحة ، وينشد أحدهم بعد ذلك قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأخيراً ينشد الجميع مرة أخرى الموشحات ويتناولون النقوط من العريس وأصدقائه

(يتبع) عدلى طاهر نور

(١) ومن هنا سميت هذه الصلاة « صلاة مماليكية » أو « صلاة المماليك »

برقـــة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

ما برقة تلك التي خلقت لنا … شغلاً وشغلاً للهواجس في غد
تلك التي حمل ابن أوس همها … في بارع بادي الجمال مخلد
(أصبا الأصائل إن برقة منشد … تشكو اختلافك بالهموم العود)
أم برقة أخرى وكم من برقة … أخنى تألقها اتساع الفدفد
قد كدت أنساها لطول تذكري … فضللت حتى كدت ألا أهتدي
(ياجارة الوادي) ولست بجارة … إن لم تردي عنه كيد المعتدي
ثأر السنوسيين لما ينسه … أهل العروبة واللسان الأمجد
جبت عروبتنا عهوداً قبلها … ومضت حفائظنا وراء المسجد
مضت الألوف من السنين بما حوت … مما حمـــدناه وما لم نحمد
والآن يقرئ بالسلام يمينهم … ويسارهم أبناءه دين محمد
ولقد شهدت وأدمعي منهلة … أمراً كهو، يا ليتني لم أشهد!
أتحالفون لغزو مصر عدوكم … وعدوها وعدو أهل السؤدد
يا جارتا إن كنت غير مطيقة … إدراك ثأرك فاغضبي وتمردي
أنا لا ألوم على المساوئ أهلها … إن كنت لما تدركي فتجلدي
إني لأذكرها فأذكر شاعراً … (ظن الظنون فبات غير موسد)

***

ماذا شهدت؟ شهدت أسمج مشهد … فتيان رومة في القميص الأسود
وأظنهم لا ينزعون سوادهم … لا بل يحك عليهمو بالمبرد
صدأ العقول كسا الجسوم بلونه … فمشوا عراة مشية المتبـــلد
فرحوا بأسرهمو فدان ألوفهم … في موكب الأسرى لفرد أوحد
لا بل همو اعتادوا المذلة قبلها … فبـــلادهم تمنو لرأي مفرد
متبجح جعل الصياح أداته … فسما على أكتاف شعب مجهد
لا تطلبوا من خاضع حرية … (صعب على الإنسان ما لم يعتد)
أمر الجنود بغزو مصر فأذعنوا … وأتوا إلى مصر بغير تردد
لا فاتحين ولا غزاة وإنمـــا … أمروا فكانوا طوع أمر السيد
ووراءهم (عرب) فوا أسفالهم … لم يتبعون جيوش طاغ معتد؟
وإذا أردت عن الحروب نبوءة … فانظر إلى الجندي ماذا يرتدي
الفاتحون، ثيابهم ولحاهمو … شهدت لهم بعقاب يوم مرصد
شعر أغص به فذلكمو أخي … ولو أنه في نهجه لم يرشـــد
لو كنت من أبناء برقة ما خطت … رجلي إلى مصر وسيفي في يدي
هيا ادخلوها راكعين وسجداً … أتم بمصر عند أقدس معبد
لو يشهد «المختار» أسرى برقة … لرثى لشعب في الهوان مبدد
سد يا حليف فكل فرد سيد … لكن شعبك ما له من سيد
لا ندعي لك عصمة في موقف … لا بل نقول لصاحب لا تبعد
طال الخلاف وما تزال بقية … منه ولكنا كرام المحتد
خان الوثائق والكتابة قومنا … حرصاً على عهد لهم أو موعد
سادوا، وما سادوا بغير جدارة … ما ساد إلا كل سامي المقصد

عبد اللطيف النشار

« الرســـالة »
في عيدها العـــاشر

[مهداة إلى « الرسالة » الحبيبة وإلى أقطابها الأولاء : الزيات والعقاد وزكي مبارك ...]

للأستاذ أحمد أحمد العجمي

حيِّ « الرِّسالةَ » وَاقْبِسْ مِنْ مُحَيَّاهَا
مَا شِئْتَ مِنْ حُسْنِهَا أَوْ مِنْ حُمَيَّاهَا !!
رَفَّتْ عَلَى الشَّرْقِ أَنْدَى مِنْ أَزَاهِرِهِ
كَأَنَّ مِنْ نَفَحَاتِ الْخُلْدِ رَيَّاهَا
وَأَشْرَقَتْ بِشُعَاعِ الفِكْرِ نَاضِرَةً
تَسْبِي الْقُلُوبَ وَتَجْرِي فِي حَنَايَاهَا
حَسْنَاءُ أَوْفَتْ عَلَى عَشْرٍ وَمِنْ عَجَبٍ
سِرُّ الْبَرِيَّةِ لَا يَعْدُو ثَنَايَاهَا
ترجو العيونُ إذا أبصرنَ نضرتَها
لَوْ أَنَّهُنَّ شِفَاهٌ قَبَّلَتْ فَاهَا

مَضَى الزَّمانُ عليها وَهِيَ أُغْنِيَةٌ ... فَمُ الخلودِ ارْتَوَى مِنْهَا وَغَنَّاهَا
تختالُ بالفنِّ والآدابِ مُترَعةً ... كالنهرِ يضحكُ أعشاباً وأمواها
الفكرُ أدبها ، والعقلُ هذَّبها ... والطبعُ حبَّبها ، والحُسنُ جلَّاها
والشرقُ من وِرْدِها ريَّانُ مُقتبسٌ ... من نورها مُستمدٌّ من سجاياها
تغدو عليه كأنفاسِ الربيعِ لها ... في كل قلبٍ معانيها ونجواها
وللحياةِ مجالٌ في صحائفها ... كالنفس تزخرُ بالدنيا طواياها
لم يبقَ للكون سرٌّ بعد ما بعثتْ ... شُعاعَها في الدُّنى يجلو خفاياها

رسالةُ النيـــلِ لا يبغي بها بدَلاً
وَهِيَ « الرسالةُ » و « الزياتُ » أدّاها
سَمَتْ إلى المجدِ والعَلْيَا وصاحِبُها ... أوفى على الغايةِ القُصْوى ووفّاها
في كلِّ لفظٍ من « الزياتِ » أغنيةٌ
الشمعُ يعشقها والفكرُ يهواها
والفنُّ في أدبِ « الزياتِ » موهبةٌ ... الحُسنُ باكرَها والسحرُ غاداها
مازال يهتفُ بالفصحى ويكلؤُها ... حتى غدا وهو حاميها ومولاها

أما « زكيٌّ » فلا والله ما خلقتْ ... له الطبيعةُ أنداداً وأشباها !
أهفو إليه كأنَّ النفسَ غارقةٌ ... في حُبِّهِ ! وكأنَّ الحبَّ سلواها
حديثُه ذو شجونٍ سحرُها عجبٌ ... ما رادَها شاعرٌ إلا تمنَّاها
معنًى جميلٌ وأسلوبٌ له صِلةٌ ... بالموجِ في البحرِ : هدَّاراً وتيَّاها
لو أنَّ بالخمرِ معنًى من سلاسته ... لباعتِ الناسُ بالأقداحِ دُنياها !

وسائلوني عن « العقادِ » إنَّ له ... نفساً تفيضُ المعاني من زواياها
أَضْفَى مِنَ الكونِ تختالُ الحياةُ بها
بالشِّعرِ والحبِّ والدُّنيا ومغزاها
له عليَّ أيادٍ ليس يعرفُها ! ... ولستُ أجحدها بل لستُ أنساها
ديوانُه قبلتي ألقى الحياةَ بها ... حسناءَ بالحبِّ تلقاني وألقاها
مرآةُ نفسٍ جمالُ الكونِ رقرقَها
وسِرُّ روحٍ لسانُ الدهرِ ناجاها
أقسمتُ أنكَ يا عقادُ معجزةٌ
هيهاتَ يدري ضميرُ الكونِ معناها
آمنتُ بالشعرِ يا عقادُ في بلدٍ ... غلَّ العمى مقلتيها ثم غشَّاها
للجهل فيها دواوينٌ وأروقةٌ ... تدعى المدارسَ حيَّ اللهُ مبناها !
آمنتُ بالشعرِ والدنيا تضيقُ به ... وطالما أضحكَ الدُّنيا وأبكاها
أنا ــ ويا ويحَ من تجني عليه أنا ــ ... كزهرةِ الجبلِ العالي وريَّاها !
يضوعُ منها الشذى لكن يضيعُ سدى
مع الرياحِ وما تدري ببلواها
حسبي من الدهرِ أن أحيا بعاطفةٍ ... مماتُها في سبيلِ الشعرِ محياها !

(كوم النور) — أحمد أحمد العجمي



ليلة عيد الميلاد

للكاتب الانجليزي « نيوورجو »

بقلم الأستاذ كامل يوسف

— ١ —

طلب الناس الهدنة من أحزانهم ليلة ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٧ وراحوا يحيون ذكرى ميلاد « السيد المسيح » ، فأنيرت الثريات الملونة، وأوقدت شموع شجرة الميلاد في كل دار، وتدفق الشراب في أجواف الناس ، حتى أصبحوا لا يشعرون إن كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤساً أم أثقالاً . وامتلأت البطون بألذ وأفخر المآكل ، حتى خيل إليهم أنها تكاد تنفجر من فرط ما استقر فيها ، وتلمس كل النغم في مخاصر إلى مراقص إلى مناج إلى مختلس للقبلات . كان الناس على هذه الحالة من المرح والسرور ، وهم يقولون في أنفسهم : « غداً سيكون الطوفان » فستحمل إليهم الأنباء ويلات الحرب التي نزلت بذويهم وفلذات أكبادهم ، وربما حملت إليهم هذه الأنباء ، وأشفق ذوو الأمر من تبليغها حرمة لهذا العيد المقدس .

في هذه الليلة تنبه شيطان من شياطين العالم الآخر على حركة مرح غير عادية في الكوكب الأرضي ، واستغرب صدور ذلك من سكان الأرض وقال في نفسه : « لعلهم لا يشعرون بما يجري من ويلات ! » ولم يدر سبب ذلك فلجأ إلى زميل من زملائه يعبر له عن عجزه عن إدراك السبب ، وكان بجوارهما مفستو فليس كبير الأبالسة ينصت إليهما فقال لهما في ابتسامة ساخرة : ألا تعلمون سر هذا المرح ؟ اليوم ذكرى ميلاد رب السلام ، فما أغبى الإنسان ! إنه ينسى مصائب الأجيال والأزمان ممثلة في الحرب الأوربية الآن ويهلل فرحاً بهذا العيد !

فلما سمع الشيطانان ذلك قال أحدهما للآخر : ما دام الأمر كذلك فدعنا نمرح ونضحك من الناس قليلاً هذه الليلة .

فأجابه الآخر : وأين نضحك وهنا مجال عملنا في الضحك والاستهزاء ، وأشار بيده إلى جهنم . فقال الأول : حقاً إنه لمجال مُمِلّ ممل، وإنه لا يسرني شيء أكثر من ذلك الرجل الذي يقال له فيدياس فقد قيل عنه إنه أخرج أحسن دمية عرفها التاريخ، ومن ذلك الرجل الذي يقال له « دافنشي » ، ومن ذلك الرجل العابس الذي كان يكره أمه كرهاً عميقاً وانفصل عنها ثم جمعتهما المصادفة في موطننا العزيز أعني به « شوبنهور » . ليس يضحكني أكثر من هذه الشخصيات الغريبة التي تبددت في شخص امرأة جميلة ، رآها فيدياس فقال إنها أجمل مما صاغته يده ؛ ورآها دافنشي فاعترف بحقارة فنه تجاهها ؛ ورآها الرجل العابس شوبنهور فأقر بخطأ رأيه في المرأة وعادت العلاقات بسببها مع أمه ، تلك المرأة المتحذلقة ، ورآها لويس الرابع عشر فأمر مدام بمبادور أن تكون خادمتها ، واستحت كليوبطرة أن تظهر أمامها لئلا تفقد شهرتها التاريخية .

وكان هذا الشيطان مع حداثة عهده قديراً مبدعاً في خاطراته، وساخراً بارعاً في أفعاله ؛ وكان زميله ينصت إليه بشوق ولذة ، فقال له وهو معجب : هيه يا بعلزبول ! فاستمر الأول يقول: تصور هذا الجمع من المجانين تظهر في وسطهم حورية ! لقد كنت أتودد إلى كل واحد منهم على حدة حتى أدعه يثق بأنها أصبحت أسيرة هواه ، فإذا استقر هذا الرأي في ذهنه تحولت عنه إلى آخر ، ومثلت هذا الدور نفسه مع كل واحد ، وبذلك استفززت غيرتهم جميعاً فنشب بينهم الخصام . وسمعت شوبنهور يقول بعد ما قاسى الخيبة : « محال أن أنزل عن رأيي الذي ذكرته في المرأة . إنها الخادعة الماكرة » وسمعته ينادي نيتشه : تعال يا بني وهات معك سوطك لكي أتفاهم مع هذه المرأة الغريبة » فقد ضحكت كثيراً من حركات هذا الفيلسوف العصبية . وددت لو صورت نفسي على مثال كلبه لكي أمزح معه ، ولكني أشفقت على أعصابه . لقد كان يوماً جميلاً حقاً ظللت فيه أبحث عنك لكي تشهد هذا الفصل المضحك فلم أجدك ، فأين كنت ؟

— كنت مشغولاً بدعاية من نوع دعايتك . فقد هيأت لنيرون أن يشعل النار في جهنم ليزيد في لذته . فإذا اسعد

لذلك ظهرتُ كالمارد فاستخزى وسكن جنونه . ولكنى فى الحق سئمت هذا المزاح وتاقت نفسى إلى شىء جديد .

فقال الشيطان الأول : وأنا كذلك أريد تجديداً .

ثم قال فرحاً كمن طرأ عليه خاطر جميل : دعنا نمزح ونسخر مع من فى الأرض الليلة ؟

— وهو كذلك . إنها لفكرة حسنة . دعنا نضحك من سخفهم هذه الليلة .

— ٢ —

فى مساء تلك الليلة اجتمعت الجموع فى كنيسة القديس بولس . وكانت الجموع خاشعة ، وقد اكتظت الكنيسة بالمصلين ، كل قد جاء يدعو الله أن يحفظ أهله من شرور هذه الحرب الطاحنة ؛ وكانت صلاة القداس يعلوها وقار وجلال لم يشهد من قبل ، وكانت قلوب المصلين تتجه إلى الذات العلية مخلصة صادقة فى دعواتها وصلواتها ؛ وظل هذا الجلال والصمت لا يقطعهما غير صوت الكاهن وأغانى الشمامسة ونغمات الأرغن حتى أتى دور الدعوات ، فأخذ الكاهن يتضرع إلى المولى عز وجل أن يزيل الكروب ، وكان يجد من مساعدة الشعب له ما يجعلهم يرددون بصوت يرن صداه فى قبة الكنيسة ومن أعماق القلوب « آمين يا رب . آمين يا رب » واستمر الكاهن فى توسله يقول : « وامنع الحروب والغلاء والفناء وسيف الأعداء » ، وقد توجهت القلوب بجملتها إلى الذات الإلهية بإخلاص أن يكشف عن الإنسان ذلك الكابوس الثقيل الذى لم يقاس أفظع منه . ومن منهم لا يتوجه بإخلاص إلى الله بهذه الضراعة وكلهم منكوب إما فى نسله أو فى ذوى قرباه ؟ لذلك كانت « آمين يا رب » تخرج من القلوب بحرارة صاعدة إلى عرش الملكوت فى ذلة الضعيف يطلب صنيعاً من سيده .

فى هذه اللحظة الرهيبة كان المستر باترمان يردد هذه الدعوات وهو يقول فى دخيلة نفسه : « يا رب لا تسمع بإجابة هذه الضراعة لأن فيها خرابى بل خراب أمتنا العزيزة » ، وكان الشيطان الكبير يرافق زميله الصغير فى هذه الحفلة المقدسة . فلما سمعا المستر باترمان اقتربا منه وسمعا أمنيته فضحكا من هذه للهزلة الإنسانية الكبيرة وأرادا أن يعبثا بالمستر باترمان فرغب الشيطان الكبير أن يهوى الرجل على الأرض ، وكان عجوزاً فى السادسة والستين من عمره لا يقوى على الوقوف طويلاً أثناء القداس ؛ لذلك كان يستند على عصاه الأبنوسية ، وفى فترات السكون الشامل بين الضراعة والأخرى ، جاء الشيطان الكبير فزحزح العصا . فسقطت من يد الشيخ العجوز وأحدثت نجة كبرى لفتت أنظار المصلين ، وانكفأ الشيخ على وجهه وكاد يسقط لولا أن تمالك نفسه ، ولما كان لا يقدر على الوقوف بدون العصا ، انحنى ليأتى بها ، ولكنه ما كاد يقبض عليها حتى خطر للشيطان الصغير أن يعبث به أيضاً فجذب العصا منه ثم تركها تهوى على الأرض فأحدثت مثل الضجة الأولى فى فترة السكون ، ولكن المستر باترمان أحكم فى المرة الثانية القبض عليها ووقف مستنداً إليها وهو يشعر بشىء من وخز الضمير علله بأنه نتيجة أمنياته التى تخالف أمنيات المصلين

والمستر باترمان من أغنياء الإنجليز وصاحب مصانع الذخيرة والأطعمة المحفوظة ، وهو مع ذلك من أقطاب السياسة وله نفوذ كبير فى إدارة دفتها . لذلك لا تستغرب منه هذه الأمنيات السيئة، إذ فى إبطال الحرب ضياع ثروته التى جعلها فى مواد سيكون مصيرها البوار . وهو ككل رجال السياسة يعهدون من توخى الصالح العام ، يوقعون الأمم فى شباك الحروب للغنم الذى يعود عليهم أو لخطر وهمى فى أذهانهم ، ويدفعون بملايين من أرواح البشر فى سبيل هذه الغايات المجرمة . وكان من سوء حظ البشرية أن نعتقد فى رجالها القداسة ، وكان المستر باترمان ككل سياسى يبرر موقفه المخزى بشتى العلل والنيات . لذلك كان يجيب على هذه الضراعات التى كانت تخرج من قلوب المصلين ومن صميم الإنسانية جمعاء ، بالتوسل للذات الإلهية ألا يجيبها لماذا ؟ لأن فى إجابتها وانتهاء الحروب ضياعاً لثروة أمة ممثلة فى ثروته تصبح بعدها فى ذل الإفلاس والانحطاط المالى

انتهت الصلاة وخرج باترمان وهو ما زال يشعر بوخز ضميره ، وقصد النادى وخرج وراءه الشيطانان ، وقال أكبرهما : لنتبعه حيثما يذهب ، ولنجعل منه متعة لأنفسنا الليلة . « فما كاد يدخل ردهة النادى حتى سمع أصواتاً عالية كان أصحابها فى مناقشة حادة ؛ فلما دخل القاعة وجد أعضاء النادى فى صخب وجدل فسأل

صديقه المستر كونراد عن سر هذا الجدل، فعلم منه أنهم يجادلون في محاصرة بلاد العدو . وهل هذا العمل يكلف الحلفاء والإنجليز خاصة أكثر مما يربحون ، ولكن باترمان لم يكن صافي الذهن خلي البال حتى يدلي برأيه ، غير أنه سأل صديقه :

— وهل من جديد في الجو السياسي ؟

فأجابه : لا شيء غير ما تنقله إلينا التلغرافات الآن من أن البابا يناشد الدول المتحاربة وخاصة الحلفاء أن يكفوا عن القتال

وقد وجد باترمان مجالاً يخرج فيه عن صمته الذي لزمه منذ كان في الكنيسة فانفجر صائحاً :

— لقد ضايقنا هذا البابا بأمنياته ، فماذا يهمه من الحرب ؟ نحن الذين ضحينا بأبنائنا وأموالنا لنا الخيار في الكف عن الحرب أو الاستمرار فيها ؛ أما هو فماذا يهمه من الخسائر ؟ لقد انزوى هو ورجاله في معقل الفاتيكان ثم يريد أن يملي إرادته علينا . إن خير جواب على هذا النداء أن نقابله بما قوبلت به نداءاته الأخرى بالإعراض والإغفال

فرد عليه صديقه المستر كونراد :

— أنت محق يا عزيزي باترمان . إن البابا لم يحترق يده في النار ليعرف ماهي النار . لذلك لا يمكنه أن يحكم على نزعاتنا ؛ وهو لم يتأصل في هذا الميدان ؛ وهو وجنوده يسمنون من أكل أجود اللحوم وشرب أنخر الأنبذة . دع غواصة ألمانية تصيب أربعة منهم وهم يتنزهون في قارب — أقول أربعة فقط لا ملايين كما فجعنا نحن — وعندئذ يحق لنا الأخذ برأيه ونقول إنه جرب الأسى والحزن مثلنا ، وعندئذ لا يتمالك أن يصب غضبه وغضب الإله الذي ينوب عنه على هؤلاء السفلة الألمان

وكانت هذه الإجابة قد أرضت سياسينا فكسرت من حدة غضبه ، واطمأنت ثائرة نفسه فقال — هو كذلك — : أوعز إلى الصحف المحافظة أن تستخف بنداء البابا ، ولندع الصحف الكاثوليكية تنادي بهذا الحلم الخيالي الذي يبدو جميلاً لأربابها أعني به الصلح والسلام

— وهو كذلك

وانصرف باترمان وخرج من النادي بعد أن وقف على تطورات الحالة السياسية وقصد فندق سيسل ، وكان الفندق غاصاً بالناس تلك الليلة يحيون فيه عيد الميلاد ، ودخل المستر باترمان الفندق وخطا في ردهته الطويلة فلفت نظره في نهايتها ما حرك اهتمامه ، فدرج نحو هذا الشيء وهو يقول في نفسه : « هل بعث ؟ محال أن يكون ذلك ، فلسنا في عصر المعجزات ، إذن لا بد أن تكون قريبتها » ، وكلما اقترب ازداد يقيناً ، لأن ما يراه أمام ناظريه الآن ينبئ عن صلة القربى . فأمامه سيدتان كبراهما ذات جمال رائع وقامة كغصن البان ، وعيون هي موارد السحر ، وشعر هو الذهب الوهاج ، وسن في حدود الثلاثين ؛ والأخرى لا تقل عنها حسناً ، ولكنها أقصر قامة وأقل فتنة . وقد اقترب منهما باترمان وهو واثق من هذه القربى ، وشغل باله بها فلم يع شيئاً غيرها . ولما وقع نظره عليها شعر بتجاوب العاطفة في نفس تلك السيدة ؛ فقد بدا على ثغرها ابتسامة جميلة فهم منها الشيخ معنى الرضا . ولما اقترب منهما رفع قبعته وانحنى وحياهما : « مساء الخير يا سيداتي ! عيد ميلاد سعيد »

فأحنت الكبيرة رأسها قليلاً بكبرياء ، وأجابت هي وشقيقتها الصغيرة : « مساء الخير يا سيدي ، عيد ميلاد سعيد » . ولم يكن المستر باترمان يعرفهما من قبل ، ولكن دفعه إلى هذه التحية وجه الشبه الذي رآه والذي أراد تحقيقه . لذلك لم يلبث أن فاجأهما بهذا السؤال : « أليس سيدتاي من أسرة سوانسون » فأجابت الكبرى في رفق وعلى ثغرها ابتسامة مغرية : « كلا يا سيدي ، بل نحن من أسرة كلارك » . وكان ثغر الصغيرة يفتر عن ابتسامة خفيفة ، ولكن الشيخ لم يقنعه هذا الرد . وذهب إلى أنه لا بد أن يكون هناك صلة قديمة بين أسرة سوانسون وكلارك ، ولكنه لا يمكنه تحقيق ذلك وهو في طريق كل إنسان يدخل أو يخرج من الفندق . لذلك دعاهما للجلوس معه فلم يرفضا ، وكانتا فرحتين طروبتين ، وقصدا مكاناً قصياً بعيداً عن ضوضاء الأحاديث وصخب الراقصين ، ودعاهما إلى الشراب فلم يرفضا ، وكانت علامات السرور بادية على محياهما ، كما كان الشيخ مسروراً لهذه العلاقة التي ذكرته بالماضي ... وكانوا كلما شربوا كثر ضحكهم وعلا صوتهم ؛ وكان الرائي يشاهد خصلتين من الشعر على فوديهما كأنهما قرنان ، ولم يفطن

لذلك الشيخ الذى أعماه السرور ، وقد حق للشيخ أن يسر ، فقد وجد شبهاً قوياً بين السيدة الكبرى وبين زوجته ، كان قد أحب فى شبابه فتاة من طبقة النبلاء كانت آية الجمال فى عصرها ، ثم تزوجها بعد جهد جهيد ولم تعش معه إلا عاماً ونصف عام ثم ماتت على أثر ولادتها الأولى . فقطع على نفسه عهداً منذ ذلك الحين أن يحفظ لها المودة ما دام حياً ، وقد بر بوعده ، وصرف عنايته إلى ابنه « جيمس » وغمره بحبه ، وجعل منه الذكرى الوحيدة لتلك الحبيبة الراحلة ... لذلك كان قرة عينه وحبة قلبه ، لا يألو جهداً فى العناية بأمره – ولو كلفه ذلك كل ثروته – إخلاصاً لتلك الفتاة التى فتح لها قلبه لأول مرة ... وكان لجيمس تلك الطلعة السمحة التى كانت لوالدته ، وتلك النونة التى كانت فى متوسط ذقنها ، فهو صورة منها . . . كان الشيخ المهدم يرى فيها مطالع السحر ... فلما وقع نظره فى تلك الليلة على هاتين السيدتين ، انتعشت روحه ، لأن حبيبته تعود للحياة ثانية . . . ولشد ما جذبته تلك الطلعة نحوها لتصور الماضى البعيد المملوء بالأحلام السعيدة ... ذكر كيف ظفر بحبيبته وتذوق السعادة لأول مرة فى حياته ؛ ولكن الشقاء كان يسخر من هذه السعادة فلم يلبث أن انتزعها منه ... هذا الماضى البعيد يعود الآن ، وهو الذى جعله ينسى الحالة السياسية وما فيها من تطورات ومفاجآت ... كانت تشغل باله على الدوام ، وخاصة تلك الليلة . لقد اعتقد تلك الليلة بالبعث ، وكان يقول فى نفسه : لعلها تجهل فى حاضرها شخصيتها السابقة .. وقد كذب هذا الوهم ما رآه من مياها من أول نظرة إليه . . فهى هى إذن ، وسذاجتها فى حديثها هى سذاجة حبيبته التى ورثها عنها ابنه « جيمس » معبوده الثانى بعد أمه ، وكان يود تلك اللحظة لو يحضر جيمس ليشاهد طلعة أمه – أو على الأقل – ليشاهد طلعة نسخة منها ، ولكن « جيمس » فى ميادين الحرب ، قد تملكته النزعة الامبراطورية فأبى أن يخلد إلى السكينة فى الوقت الذى تصوب سهام العدو إلى هدم امبراطورية أجداده ، فتطوع فى الحرب برغم كل العراقيل التى وضعها والده فى سبيله ... ولكم كان يسر الشيخ إذا علم أن الفرقة التى ينتسب إليها ابنه قد حازت انتصاراً على العدو ، وكان يعتقد أن الظفر قد تم بفضل حذق ابنه ، وكان يكثر من ترديد ظفر الفرقة التى يحارب فيها ابنه أمام أصدقائه ، وكان يقول لهم : وإلى حذق ابنى يرجع الفضل . . . وكان عند التحاق ابنه بالجيش يخشى عليه عادية الردى ، ولكن بعد أن تدبر تاريخ حياته وما فيه من نكبات وفواجع ، استكثر على المقادير أن تختمها بفقده ، وأصبح يميل إلى اعتقاد أن المقادير رحيمة ، تكفر عما أصابته بهذه الحسنة ، وقد أغراه بهذا الوهم ما كان يصله من حين وآخر من سلامة ابنه من كل الأخطار ... !

فى هذه اللحظة القدسية التى وجد فيها الشيخ نفسه بجوار حبيبته نسى العالم وما فيه من شرور ، وشعر بسمو روحه وبلذة قدسية ، كأنها قد هبطت عليه من السماء . . . وكان يزيد هذا الشعور الروحى فى داخله كلما فتح عينه فرأى صورة زوجته وحبيبته ، أو هى بذاتها ... ولم يكن هذا الشعور من فعل الخمر ، فإنه لم يكرع غير ثلاثة أكواب من الويسكى لم تحدث له أى جموح فى الخيال ، بل هى على العكس قد زادت فى انتباهه وذهبت بالتعب الذى كابده طول هذا اليوم

وكان حديث الشيخ عادياً ، أو قل كان مقطوعاً ، وهل فى مثل هذه اللحظة يجرى الحديث ؟ ... وكان معظم ما فاه به لا يخرج عن تعبيره عن غبطته وسروره وسعادته بتلك اللقيا ، وكانت الفتاتان لا تكلفان أنفسهما أكثر من الابتسامة رداً على تمنياته . وقد أحدث سروره نوعاً من الذهول جعله فى عزلة عما يحيط به ؛ حتى إنه لم يشعر بوجود خادم الفندق بجواره يقدم إليه شيئاً فى صحن ، حتى نبهته كبرى الفتاتين ، فالتفت إلى الوراء فوجد الخادم ، فقدم إليه برقية وقرأ على الغلاف : فى خدمة صاحب الجلالة الملك ... ففهم أنها برقية حكومية ، وما كاد يفض الغلاف ويقرأ البرقية حتى أفاق من نشوته ، وأظلمت الدنيا فى وجهه ، وأغمى عليه ... فتناولت الفتاة الكبرى البرقية وقرأتها ؛ فإذا فيها :

« الملازم الأول « جيمس باترمان » أصابته رصاصة قضت عليه . . . ! » (القيادة العامة)

وبعد أن عاد إلى حسه سمع صوتاً يردد : « يارب ، لا تسمح بإجابة هذه الضراعة ، لأن فيها خرابى ، بل خراب أمتنا العزيزة ! » وتلا ذلك ضحكات ملؤها السخرية والتهكم ... ففتح عينه ، فلم يجد مصدر هذا الصوت ، ولم يجد جليستيه ... ولكنه شعر بحفيف أشبه بحفيف الأجنحة أحدث تياراً شعر به !

كامل يوسف

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)